تفسير القرآن الحكيم

٤

آيات الإيمان بالرسل

تأليف
عبد المنعم أحمد تعيلب

الطبعة الثانية

١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على إمام الهدى محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعـــد :

فبعون من الله سبحانه نتابع الجهد في مجموعة [تفسير القرآن الحكيم] بإصدار كتابنا هـــذا :

آيات الإيمـــان بالرسل

ونسير على منهاجنا المرتضى – إن شاء الله – نورد الآيات المتضمنة نبأ رسول من الرسل ثم نتبعها بتفسيرها

أولاً : بالآيات الأخرى من كتاب الله

ثم بما صح عن سيدنا محمد خاتم رسل الله

ثم بما ثبت عن الصحب الكرام والأئمة الأعلام

ثم بما يفتح الله به من فهم ، نسأله جل علاه أن يبلغ به القصد ، وهكذا في سائر المرسلين صلوات ربنا وسلامه عليهم أجمعين .

وإنا لنضرع إلى مولانا البر الرحيم أن يعلمنا ما جهلنا ، وينفعنا بما علّمنا ، ويزيدنا علماً ، إنه هو العليم الحكيم ، والمستعان على كل عظيم .

المؤلف

تمهيد

اصطفى الله سبحانه وتعالى من الناس رجالاً ، نبأهم بما شاء من علمه ، وكلّفهم بما شرع من دينه ، ومن هؤلاء المصطفين اختار الحكيم سبحانه رسلاً حمّلهم أمانة الدعوة إليه وتبليغ شرائعه ، أولئك هم أنبياء الله ورسله ، بعثوا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة .

ولما بعث الله محمداً خاتم النبيين أمره أن يؤمن بكل الرسل السابقين ، وأمرنا أن نؤمن به — سبحانه — وبخاتم رسله وبكافة المرسلين — لا نفرق بين أحد من رسله —

وما يكون المؤمن مؤمناً إذا لم يستيقن بكل هؤلاء المكرمين ، وإنما عليه أن يصدق بجلال الله ، ويثق بأمانة سائر رسل الله .

يقول الله جل علاه : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما) (١) .

والرسل كثيرون ، طائفة منهم جاء ذكرهم في القرآن العظيم ، وطائفة أشير إليهم دون إيراد أنبائهم : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ..) (٢) والذين نؤمن بهم على التفصيل خمسة وعشرون رسولا ، ثمانية عشر ذكروا على التتابع في آيات أربع : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى

---

١) سورة النساء : الايات : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢

٢) سورة غافر من الاية ٧٨ .

المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) (١) .

وسبعة جاء الحديث القرآني عنهم متفرقاً ، وهم : آدم ، إدريس ، هود ، صالح ، شعيب ، ذو الكفل ، محمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين —

ولقد نظم بعضهم موجز ما ذكرناه فقال :

في تلك حجتنا منهم ثمانية — من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا — ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وسنعرض — بإذن الله — إلى جانب مما أورد القرآن من أنبائهم مرتبين الحديث عنهم حسب إرسالهم ، وفي كل قسم من كتابنا نتدارس ما تيسر مما صنع الله لرسول ، أو رسل بعثوا في زمن واحد أو في أحقاب متلاحقة .

واكتفينا بإيراد قدر مما قص الكتاب العزيز من حديثهم ، رغبة في التيسير ، على عزم معاودة إيراد ما يتصل بدعوة كل منهم ، وجدال أقوامهم لهم،في كتاب قادم — بعون الله — وبالله التوفيق .

---

١) سورة الانعام . الايات : من ٨٣ الى ٨٦ .

أقسام الكتاب

صفحة

عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

القســم الأول

مــن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

آدم ، إدريــــس ، نــــوح

هــود ، صالــح

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا . . . (٣١)

علم الله تعالى آدم أبا البشر ، وأول الأناسي العبارات الدالة على ذوات وأسمائها ، الأجناس والأنواع ومنافعها ، هذا كذا ، ويصلح لكذا .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة : علّمه أسماء جميع الأشياء .. ا هـ

ونقل أبو عبدالله القرطبى عن قتادة قال : علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمى كل شىء باسمه ، وأنحى منفعة كل شىء إلى جنسه .. ا هـ

ومما روى البخارى في صحيحه عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « .. ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ! فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شىء .. » .

وهكذا ثبت بالقرآن الحكيم والسنة الصحيحة تفضيل الله لآدم بالعلم ، وتقدمه على الملائكة الكرام وإحاطته بما لم يحيطوا بعلمه ، كما قال الله جل علاه : (.. ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ..) (١) .

ومن يتدبر هذه الآيات ، ويلق السمع إلى مقام العلم في كل الرسالات يزدد يقيناً بأن الإنسانية منذ برأها البارى عز وتقدّس مقرون شرفها بالعلم ، وأن وحى الله على تعاقب الدهور والعصور يستنفر بنى البشر ليعلموا .

وبحسب العارفين من رفعة القدر أن ذكروا مقترنين بذكر اسم الله العظيم في الآية الكريمة : (.. قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتـــــاب) (٢) .

---

١) سورة البقرة . من الاية ٣١ والاية ٣٢ ومن الاية ٣٣ .

٢) سورة الرعد . من الاية ٤٣ .

فهل آن للاناسى أن يعملوا عقولهم ، ويعرفوا أقدارهم ويشكروا الله أن شرف ذكرهم ، وأنعم على أبيهم آدم بنور العلم هدى للبصائر ؟ ! ولقد كان هذا التكريم من قبل أن يؤتى النبوة ، وإلى هذا يشير قول الحق سبحانه : (ثم[1] اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)[2] .

ولعل في تقديم الحديث القرآني عن العلم الذى أوتيه آدم على ذكر سجود الملائكة له — مع أن السجود وقع أولاً[3] لعل في هذا ما يبين فضل العلم .

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنـــــة)

بعد أن نفخ الله الروح في آدم ، وأسجد له الملائكة ، وعلمه الأسماء كلها ، وأخرج إبليس من دار النعيم والتكريم ، لإبائه السجود لأبى البشر — بعد هذا قال المولى سبحانه لآدم : (. . اسكن أنت وزوجك الجنـــــة) .

يقول أبو عبدالله القرطبى : لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره ، وأبعده عن الجنة ، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن .. ا هـ

---

١) «ثم » يعطف بها لتفيد الترتيب مع التراخي ، وقد سبقتها الاية الكريمة : (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما . .) من الاية ١٢١ من سورة طه .

٢) سورة طه الاية ١٢٢ .

٣) يشهد لهذا قول الله سبحانه (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فالعطف بالفاء يفيد ترتيب ما بـ[illegible]ـدها على ما قبلها . فالسجود جاء على أثر نفخ الروح متصلا به ،وتعليم الله تعالى آدم كان بعد احيائه .

أقول : (اسكن) ربما تعني : أبحنا لك اتخاذ هذه المحلة للسكن ، مما يشعر بأنه ليس تمايكاً ولا تخليداً ، فإنه حين يفوز السعداء بثواب الجنـــــة ينادَون : (.. فادخلوها خالدين) [1] ويثنون على الله بما آتاهم من نعيم لا يفارقهم ولا يفارقونه (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله ..) [2] .

(أنت وزوجك)

أبحت لك هذه الدار تسكنها أنت وزوجك

يقول الحسن النيسابورى : وأجمعوا على أن المراد بالزوجة حواء ، وإن لم يتقدم ذكرها في هذه السورة ، ففى سائر القرآن ما يدل على ذلك ، وأنها مخلوقة منه .. ا هـ

(الجنـــــة)

هى دار السلام ، ومقعد الصدق ، ومأوى المتقين ، إذ أل للعهد ، والذى يؤمنون لا يعرفون إلا جنة الخلد ، وإنما الخلود لداخليها مثوبة ، فهم الذين أخبر الله عنهم ببقائهم فيها أبدا (.. وما هم منها بمخرجين) [3] وهم الذين ينادون بعد تبوئها (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) [4]

(وكلا منها رغدا حيث شئتما)

أحللت لك وازوجتك أن تأكلا من ثمار هذه الجنة وخيراتها من أى جانب شئتما ، واطعما هنيئاً غير محرومين ولا مضيقا عليكما ، ولا مكابدين عناء في تحصيل رزقكما .

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظـالمين)

وإنى مبتليكما ومختبركما بصنف من شجر هذه الجنة ، لا أحل لكما ثمره ، واحذرا مقارفة ما نهيتكما عنه ، فمن وقع في منهياتى فقد تعدى حدودى وتجاوز ما أبيح له .

والشجرة : كل ما قام على ساق مما تنبت الأرض .

---

١) سورة الزمر . من الاية ٧٣ .
٢) سورة فاطر . الاية ٣٤ ومن الاية ٣٥ .
٣) سورة الحجر . الاية ٤٨ .
٤) سورة الزخرف . الاية ٧٢ .

وقد نقل عن الصحابة ومن بعدهم آراء في أى شجرة نهى آدم وزوجه عن الأكل من ثمرها ؟

فعن ابن عباس وغيره أنها البرأو الحنطة أو السنبلة .

وعن ابن مسعود وابن جبير وغيرهما أنها الكرمة أو العنب .

وقال أبو جعفر الطبرى : والقول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجه أكلا من الشجرة التى نهاهما ربهما عن الأكل منها ، فأتيا الخطيئة التى نهاهما عن إتيانها بأكلهما ما أكلا منها بعد أن بين الله جل ثناؤه لهما عين الشجرة التى نهاهما عن الأكل منها ، وأشار لهما إليها بقوله (ولا تقربا هذه الشجرة) .

ولم يضع الله جل ثناؤه لعباده المخاطبين بالقرآن دلالة على أى أشجار الجنة كان نهيه آدم أن يقربها بنص عليها باسمها ولا بدلالة عليها ، ولو كان لله في العلم بأى ذلك من أى رضا لم يخل عباده من نصب دلالة لهم عليها يصلون بها إلى معرفة عينها ، ليطيعوه بعلمهم بها كما فعل ذلك في كل ما بالعلم به له رضا ... ا هـ

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

(فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه)

قضى الله أن يختبر آدم وحواء ويمتحنهما وهما يسكنان الجنة بالامتناع عن الأكل من الشجرة ، فاحتال عليهما إبليس وأوقعهما في الزلل بأكلهما منها ، فكان ذلك سبباً في إخراج الله لهما من دار التشريف إلى دار التكليف.

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)

أخرج الله إبليس من الجنة حين استكبر ، وأبى السجود لآدم بعد أمر الله له بالسجود ، ثم أخرج منها آدم وزوجته بسبب زلتهما ، وبصرهما الله ، وبصّر ذريتهما في شخصيهما بأن إبليس مقيم على عداوته لبني البشر ، وعليهم أن يتخذوه عدوّا .

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)

أبدلتم من سكن الجنة سكن الأرض ، ومن متاعها متاع الحياة الدنيا إلى وقت انقضاء الأجل .

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)

ألهم الله آدم وحواء كيف يعتذران إليه من مخالفتهما بالأكل من الشجرة التي نهيا عن اقترابها ، فتقبلا ما جاءهما عن ربهما وسارعا منيبين إليه . والآية هنا تحدثت عن آدم ، لكن جاء في سورة أخرى : (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (١) .

(إنه هو التواب الرحيم)

الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ، ومهما كثر رجوعهم إلى طريق الله فإن الله تعالى يعفو عما قدّموا ، تفضلا منه ورحمة .

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

كرر القرآن وأكد أمر الله بهبوط آدم ومن معه ، وبشّر من يتبعون ما سيجيئهم عن ربهم من بيان وإرشاد ورسالات وتشريعات بشّرهم بأنهم

(١) سورة الاعراف - الاية ٢٣ .

يأمنون ، ولا يفزعون مما يتهيبون حين يموتون ، ولن يغتموا على ما تركوا وراءهم ولا من يخلّفون .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

وأما من جحد سلطان ربه ، وكذب بآياته ، وأدلته على جلاله ووحدانيته ، ولم يصدق ما بعث به أنبياءه ، فإن جزاء المنكرين أن يبقوا في جهنم دائمين .

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة » .

إدريس

من سورة مريم

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

(واذكر في الكتاب إدريس)

اذكر يا محمد في قرآننا رسولنا إدريس . وجمهور من علماء القرآن على أنه أخنوخ جد نوح – عليه وعلى جميع المرسلين صلوات الله وتسليمه –

(إنه كان صديقا)

إنه كان صدوقاً لا يرضى الكذب ، ومسارعا إلى تصديق ما يجيء عن ربه – شأن إخوانه المرسلين ، والصفوة المتقين – كما مدح الله تعالى خليله إبراهيم : (.. إنه كان صديقاً نبيّا) (١) . وأثنى القرآن الحكيم على مريم بالتصديق : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) (٢) .

(نبيــا)

نبّأه الله تعالى ، وجاءه منه الخبر والوحى .

(ورفعنــاه مكانــا عليــا)

رفع الله تعالى إدريس إلى السماء . وقد جاء في حديث الإسراء أن محمداً صلى الله عليه وسلم لقيه هناك في الملأ الأعلى ، ففى الصحيح (٣) : « .. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة . فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد. فقيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير، ثم يقول الله تعالى : (ورفعناه مكاناً عليا) ».

نـــــوح

من سورة العنكبوت

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

(ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه)

بعث الله تعالى نوحاً إلى قومه ليوحدوا الله ، ويدَعوا ما عبدوه من دونه

---

١) سورة مريم ، من الاية ٤١ .

٢) سورة التحريم ، الاية ١٢ .

٣) رواه الامام مسلم عن أنس بن مالك .

سبحانه : (.. فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره) (١) (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ..) (٢).

(فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما)

مكث يدلّهم على الهدى ، ويحذرهم عاقبة الشرك : (.. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٣)(...فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)(٤) .

وصبر – عليه صلوات الله وسلامه – على تبليغ رسالة ربه ، وتابع تبشير من يتّقي ويوحد ، وإنذار من يشرك ويجحد ، ومرّت قرون وهو دائب على الترغيب في عبادة الله وتقواه . والترهيب من عصيانه وتأليه ما سواه ، فما زادهم التذكير بحق الله إلا بُعدا .

تسعمائة وخمسون سنة ونوح يبين الرشد لقومه وما آمن معه إلا قليل ، إنه لصبر أولى العزم من الرسل .

(فأخذهم الطوفان وهم ظالمون)

فلما استحبّوا العمى على الهدى ، وأصرّوا على الغي ، واستكبروا عن الحق ، حانت ساعة الانتقام ، وتأذّن الله بإهلاك المجرمين ، وإغراق الكافرين.

والطوفان في لغة العرب : كل ماء فاش طام .

والقرآن الكريم يشير إلى عظمته بقوله : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) (٥) . كما يبين مقدار هوله فيما حكاه عن تخطئة نوح لابنه حين قال : (.. سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) (٦).

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

---

١) سورة الاعراف . من الاية ٥٩ .
٢) سورة نوح . الاية ٣ ومن الاية ٤ .
٣) سورة الاعراف . من الاية ٥٩ .
٤) سورة هود . الاية ٣٩ .
٥) سورة القمر . الايتان : ١١ ، ١٢ .
٦) سورة هود . من الاية ٤٣ .

(فأنجيناه وأصحاب السفينة)

ولما جاء أمر الله ، وحل موعد بأسه ، وبدت أمواج الطوفان ، أوحى الله إلى نوح – نبيه ورسوله – أن يركب السفينة التى صنعها منذ عهد إليه مولاه : (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون) (١) . كما نودى أن يحمل فيها من كل من نبات الأرض وحيوانها زوجين اثنين ، وأن يركب معه أهل التصديق برسالته . وليطمئنوا بعد ذلك إلى أن سفينتهم – مهما اشتدت الأنواء – ناجية ، وليستبشروا – وإن علا الموج كالجبال – فإن وليهم الله رب العالمين ، وهو سبحانه مع المؤمنين المتوكلين المتقين المتضرعين ، وإلى هذا أرشد الوحى الحكيم : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (٢) .

وجرت سفينتهم باسم الله الخبير البصير ، القوى القدير، وسيّره سبحانه برعايته حتى أهلك الفجار (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بُعداً للقوم الظالمين) (٣).

(وجعلناها آية للعالمين)

وكان هلاك المجرمين ، وإنجاء الله المؤمنين ، علامة على صدق المرسلين ، وعظة للمعتبرين ، وإنفاذا لسنن القوى القدير التى لا تتحول ولا تتبدل . (إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين) (٤) (ولقد تركناها آية فهل من مدّكر) (٥) .

أو جعلها الله تعالى نعمة أن نجّى الأسلاف والآباء ، يقول المولى عز شأنه : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) (٦) ويقول جل علاه : (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) (٧) .

---

١) سورة هود . الاية ٣٧ .
٢) سورة المؤمنون . الايتان : ٢٨، ٢٩ .
٣) سورة هود . الاية ٤٤ .
٤) سورة المؤمنون : الاية ٣٠ .
٥) سورة القمر . الاية ١٥ .
٦) سورة يس . الايتان : ٤١ ، ٤٢ .
٧) سورة الحاقة . الايتان : ١١، ١٢ .

من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾

(كذبت عاد المرسلين)

قبيلة عاد وجماعته كذبوا رسول الله إليهم . و (عاد) تصرف وتنون باعتبارها اسما للحي الذى كان يسكنه القوم — وكان فيما روى بنواحي حضرموت إلى اليمن —

ومع أنهم لم يكذبوا إلا هوداً ، وصفهم القرآن الكريم بأنهم كذبوا المرسلين ، كأن تكذيب رسول تكذيب لكل الرسل .

(إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون)

نبيهم هود — صلى الله عليه وسلم — كان من القوم ، بعثه الله إليهم ينبههم من غفلتهم ، ويردهم عن غوايتهم قائلاً : (ألا تتقون) ألا تحذرون عقاب الله على إعراضكم عنه ؟ !

(إني لكم رسول أمين)

إنى أمين على وحى الله الذى حملته إليكم ، فلا أقول على ربى إلا الحق ، ولا أزيد على ما جاءنى ولا أنقص منه .

(فاتقوا الله وأطيعون)

فاخشوا جلال باريكم وهيبته ، وأطيعونى فيما آمركم به وأنهاكم عنه .

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾

إنما تمحض النصيحة ، وتستوجب القبول ، إذا تجرد الناصح ولم يطلب من المنصوحين مثوبة على نصحه ، وهكذا دعا هود إلى الهدى محتسبا أجره ومدخرا ثواب ذلك وجزاءه عند الله رب العالمين ، الشكور الكريم .

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون)

استكثرتم من الأبنية الشاهقة العالية كالجبال ، وأقمتموها على كل طريق وواد ، للّعب والعبث ، وجاء الكلام على صورة الاستفهام والمراد به الإنكار .

(وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)

وتشيدون المصانع أو مآخذ الماء أو الأبراج والحصون ، كأنكم مخلدون لا تموتون . أو لعلكم تحيَوْن أبدا حين تبنون هذه الأشياء .

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين)

وإذا غضبتم قتلتم وأسرفتم في إزهاق الأرواح ، وإسالة الدماء ، واستكبرتم عن الحق ، واستعليتم على الخلق .

(فاتقوا الله وأطيعون)

تَوقوا عقاب الله وسخطه ، وانتهوا عن مناهيه ، وذروا اللهو واللعب ، واحذروا قسوة القلب وطول الأمل ، وظلم الناس وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض . (وأطيعون) فيما أمرتكم به عن ربي وربكم .

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾

(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون)

إن الذى أعطى وأجزل ، وأنعم وتفضل ، حقّه أن يشكر فلا يكفر وأن يطاع فلا يعصى ، فهو الذى وهبكم ما تعرفون .

(أمدكم بأنعام وبنين)

آتاكم الله إبلا وبقرا وغنما ، عليها تدور معايشكم ، وبها تقرّ نواظركم ، وهكذا جعل الله تعالى في الأنعام متاعا حسيا ومتاعا نفسيا ، وبهما امتنّ عز وجل في الآيات الكريمات : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلدلم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) (١) . كما وهبكم الأبناء منعة وعزّا .

(وجنات وعيون)

ورزقكم ربكم البساتين والحدائق والزروع تطالعون بهاءها وتقطفون ثمارها ، وتغنمون خيرها .

كما أجرى لكم وفجر ماء الأنهار والعيون .

(إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)

إن كذّبتم وخالفتم ، وبدّلتم النعمة جبروتا واستكبرتم ، فإنى أخاف عليكم نقمة الله وبطشته ، فإن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين ، وسنته في كل عات تمضى كما مضت في الأولين – وما قوم نوح منهم ببعيد – (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما) (٢) .

---

١) سورة النحل . الايات : ٥ ، ٦ ، ٧ .

٢) سورة الفرقان : الاية : ٣٧ .

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

(قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين)

قال القوم المكذبون لنبيهم هود : إنذارك وعدم إنذارك سواء ، لن نستجيب لما دعوت إليه ، (.. وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)(١) .

(إن هذا إلا خلق الاولين)

ما هذا الذى تنكر منّا إلا إلف وعادة من سبقونا – فهم على آثارهم مقتدون – وكانوا قد توارثوا البغي والفخر ، والغرور والكبر ، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى : (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون)(٢) .

(وما نحن بمعذبين)

نفوا أن ينالهم عذاب عاجل أو آجل ، وكأنهم أمنوا مكر الله ، أو ظنوا أن ما أوتوا يحول بينهم وبين الدمار والنكال .

(فكذبوه فأهلكناكم)

كذبت عاد رسولنا هودا فمحوناهم ، وفي ذلك البأس الربانى نزل قول الله : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية)(٣) .

---

١) سورة هود . من الاية ٥٣ .

٢) سورة فصلت . الاية ١٥ .

٣) سورة الحاقة . الايات : ٦،٧،٨ .

(إن في ذلك لآية)

إن في انتقامنا من كل باغ عات لعلامة على اقتدارنا ، وعبرة لخالقنا .

(وما كان أكثرهم مؤمنين)

لم يصدق بدعوة التوحيد من قوم هود إلا قلة تداركهم الله تعالى فأنقذهم من البلاء الذى حل بقومهم . يقول ربنا سبحانه : (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) (١) .

صالــــح

من سورة النمــل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾

(ولقد أرسلنا إلى ثمــود أخاهم صالحا)

بعث الله تعالى إلى قبيلة ثمود نبيا منهم هو صالح عليه السلام . وكانوا يسكنون الحجر ، بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .

(أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون)

دعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، كما جاء في آية أخرى : (.. قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره ..) (٢) . فآمنت طائفة ، وانبرى لهم الكبراء المكابرون الكــــافرون يخاصمونهم : (قال الملأ الذين استكبروا من قومـــــه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون

---

١) سورة هود . الآية ٥٨ .

٢) سورة هود . من الآية ٦١ .

أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون)[1] .

(قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة)

تحدّوْا نبيّهم (.. وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين)[2] .

فاستنكر عليهم رسول الله إليهم أن يتعجلوا البلاء ، بدلا من طلب العافية .

(لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون)

هلا طلبتم إلى الله أن يستر عليكم ذنوبكم ، وأن يعفو عن آثامكم رجاء أن يتوب عليكم ويغفر لكم ، وينجيكم من خزى الدنيا ، ويعظم ثوابكم في الآخرة برحمته ؟ !

قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

(قالوا اطيرنا بك وبمن معك)

من جهلهم ظنوا السوء بربهم ، وتشاءموا من دعوة نبيهم لهم ، وقالوا : ما نرى في وجهك ووجوه أتباعك بشرى بخير يصيبنا .

وأصل الطيرة : أن يزجر المتطير طيرا فإن أخذت يمينا تفاءل،وإن اتجهت شمالا تطيّر وتوقّع النحس والشؤم .

وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهى عن الطيرة ، والتنفير من الركون إليها ، أو التسليم بصحتها ، فضلاً عن التأثر بها .

روى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا طيرة ، وخيرها الفأل » قالوا : وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » .

---

١) سورة الاعراف ، الايتان : ٧٥ ، ٧٦ .

٢) سورة الاعراف ، من الاية : ٧٧ .

(قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون)

كل ما ينتظركم ويحل بكم وتترقبون ، يأتيكم به الله وحده ؛ والذى أدعوكم إليه ليس مما تسوء عاقبته ، وإنما أنتم الذين فتنكم الشيطان عن توحيد ربكم وطاعته .

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

كان في مدينة صالح تسعة من أكابر مجرميها وطغاتها ، أمعنوا في الإفساد وتمحضوا له ، ولم يسلكوا طريق عمل خير أبدا ، انبعث هؤلاء الأشقياء يتواثقون على العدوان .

قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾

(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله)

قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله لنهاجمن صالحا وأتباعه خفية نقتلهم تحت جنح الظلام .

والأهلية : أهلية الدين . والبيات : مباغتة العدوّ ليلا .

(ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون)

فإذا أصبحوا مقتولين قلنا لرهط صالح وعصبته الذين لهم ولاية دمه ، والذين قد يأخذوننا بالثأر : ما حضرنا ولا ندرى من قتله وقتل صحبه .

والمهلك : الهلاك ، كقوله تعالى : (إليه مرجعكم ..)(١) أى رجوعكم .

(١) سورة يونس ، من الآية ٤ .

(ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون)

دبّروا أمرهم ، وأبرموا كيدهم ؛ وكاد الله لهم ؛ وخيّب ظنّهم ، فما نالوا من صالح نبيهم — عليه السلام — والذين معه منالا . بل نجّى الله برحمته صالحا والذين آمنوا معه ، وحاق المكر السّيء بأهله .

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين)

تأمّل وتدبّر كيف جازاهم الله تعالى على مكرهم وتدبيرهم ، وعلى غدرهم وهمهم بقتل نبيهم وأخيارهم، فكان عاقبة الذين أساءوا السوآى ؛ وأهلك الله التسعة الأكابر ، وأهلك سائر قومهم الكافرين .

(فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون)

خرّب الله بيوت الظالمين ، إحقاقا للحق ونصرة للموقنين ، وعلامة على قدرته ، وبأسه وبطشته ، يدّكر بها ويعتبر أهل الفهم والعلم .

يقول الله عزّ وجلّ : (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) (١) .

حلّ بهم بلاء ، وداهمتهم صيحة ، فقتلوا جميعاً ، وخلت منهم مساكنهم ، وأقفرت دورهم .

---

١) سورة الذاريات . الايات : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .

(وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)

أنجى الله تعالى المؤمنين المتقين ، فلم يهلكم مع المهلكين،رأفة منه سبحانه بالمصدقين المطيعين .

جاء في آية أخرى : (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز) (1) .

---

1) سورة هود . الآية : ٦٦ .

ما تضمنه القسم الأول من آيات

ما تضمنه القسم الأول من أحاديث

أ – مما في الصحيحين : –

القسـم الثـاني

مـن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

إبراهيـم ، لـوط ، إسماعيـل
إسحـق ، يعقـوب

من سورة مــريم

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾

(واذكر في الكتاب إبراهيــم)

اذكر يا محمد في القرآن نبأ إبراهيم ، الذى إليه قومك ينتسبون .

(إنـه كان صديقاً نبيـا)

إن إبراهيم ثبتت له الصديقية والنبوة ، جمع خصائص المصطفين الأخيار ، حتى اتخذه الله — جل علاه — خليلا ، وجعله مباركا ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، ورفع ربه درجته فقال في محكم قرآنه : (إن إبراهيم كان أمّة ..) (١) . و (كان) بمعنى الثبوت والاستمرار أى لم يزل موصوفا بما ذكر .

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن : والصديق من أبنية المبالغة فهى إما مبالغة صادق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، وإما مبالغة مصدق وذلك لكثرة تصديقه الحق ، وهذا أيضاً بالحقيقة يعود إلى الأول لأن مصدق الحق لا يعتبر تصديقه إلا إذا كان صادقاً فيه ، والحاصل : أنه كان صادقاً جداً في أقواله مصدقاً لجميع من تقدم من الأنبياء والكتب . ا هـ

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾

توجه إلى أبيه منادياً مجادلا ، سائلا مستنكرا : (لم تعبد ما لا يسمع) ؟ ما ينبغي الخضوع والتعبد لشيء لا يصدر عنه فعل السمع على الإطلاق (ولا يبصر) لا يتأتى منه إبصار .

---

١) سورة النحل ، من الآية ١٢٠ .

يقول العلماء : منسيّ المفعول لا منويه ، (ولا يغني عنك شيأ) لا يدفع عنك أمراً من الأمور .

وظل ينذر أباه ، ويتلطف في تبصرته ، ويحرص على هداه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

ونورد في هذا الشأن لمحة لبعض العارفين : تبرأ إبراهيم من أبيه ابتغاء مرضاة الله فسماه الله أبا المؤمنين ، وذلك قوله سبحانه : (.. ملة أبيكم إبراهيم ..)(١) .

من سورة العنكبوت

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

(وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه)

وأرسلنا إبراهيم ، أو اذكر إبراهيم حين أمر قومه بعبادة الله وتقواه : خُصّوا الله بالعبادة ، واجعلوها له سبحانه دون سواه ، وخافوه ولا تخالفوه .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)

عبوديتكم للمعبود بحق – جلّ وتعالى – واتقاء عصيانه خير لكم إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شرّ لكم ، وأنتم تعلمون ما أمضى الله القدير في أسلافكم : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبّرنا تتبيرا)(٢) .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ

---

١) سورة الحج ، من الاية ٧٨ .

٢) سورة الفرقان ، الايات : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه)

لم يرد قوم إبراهيم على قوله لهم : (اعبدوا الله واتقوه) وهدايتها إلى ما فيه الخير ودلالتهم عليه — لم يردّوا إلا بأن تواثقوا فيما بينهم أن يقتلوا إبراهيم أو يحرقوه . وهكذا بدلاً من الإذعان للحق ، والاستجابة إلى نداء الخير ، تواصوا بإحراقه : (قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم) (١) .

(فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

وبنوا موقدا ، وجعلوا حطبا ، وأججوا نارا ، وقذفوا به فيها ، فأمرها الله الذى لا يردّ أمره أن تكون عليه برداً وسلاماً ، فأنجاه الله من حرها وشرها ؛ إن في تخييب أمل الباغين ، وحسن عاقبة المتقين، لعلامات على اقتدار القوى المتين ، تزيد في يقين المصدقين .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا)

وقال إبراهيم لقومه إن ما تعبدونه من دون الله ليست إلا أصناماً جامدة ، وحجارة هامدة ، لا يستطيع العاقل المتفكر أن يعظمها أو يخضع لها ، كما حكى القرآن عنه في آيات أخرى : (قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) (٢) (قال أتعبدون ما تنحتون) (٣) .

---

١) سورة الصافات . الاية ٩٧ .
٢) سورة الشعراء . الايتان : ٧٢ ، ٧٣
٣) سورة الصافات . الاية ٩٥ .

والأوثان : ما نصب ليعبد من دون الله .

قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ،والوثن ما يتخذ من جص أو حجـــــارة .

وقال الجوهرى : الوثن الصنم ، والجمعُ وثن وأوثان مثل أُسد وآساد .

(مودة بينكم في الحياة الدنيا)

اتخذتم الأوثان وعبادتها مذهبا تتحابّون وتتآلفون عليه ، أو تخشعتم إليها وتقربتم ، فعل المواد المحب ، كأنكم تطمعون في خير تنياكـــم ، وهيهات ! : (.. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ..) (١) .

ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النـــــار وما لكـــــم من ناصرين)

يوم يقوم الناس لرب العالمين يتعادى كل الذين تواصلوا على غير حب الله ، فمن توادّوا على تعظيم الأصنام وعبادتها يتبرأ بعضهم من بعض ، ويدعو كل منهم على الآخر باللعنة وسوء الدار ، والطرد والبعد من رحمة العزيز الغفار ، وان يمنعهم من الله مانع ، ولن ينصرهم حين يقذف بهم جميعاً في السعير من نصير ، وما هم بخارجين من النـــــار .

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

فصدّق لوط دعوة إبراهيم ، وآمن بوحدانية الله .

وهكذا صبر إبراهيم على تكذيب قومه ، وما فتر عن تبليغ الرسالة ، وهمّوا بتحريقه خذلانا للحق وانتصاراً للإفك ، وما استجاب له بعد هـــذا الكيد كله إلا ابن أخيه — كما قال المفسرون — وهدى الله تعـــالى لوطـــا .

(وقال إنى مهـــــاجر إلى ربى)

وقال إبراهيم إنى تارك أرض قومى — وأكثر علماء القرآن على أنها

---

١) سورة العنكبوت ، من الاية ١٧ .

الكوفة – ومرتحل إلى حيث يحسب ربى ، إلى أرض الشام .

يقول الله تعالى في آية أخرى : (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيهـــــا للعالمين)(1) .

(إنه هو العزيز الحكيم)

إن ربنا هو القوى الذى لا يغلب ، ولا يمانع مراده ووحيه ، وهو الحكيم في فعله وقضائه ، وتدبيره وتصريف خلقه .

لـــــوط

من سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾

(كذبت قوم لـــــوط المرسلين)

كذب القوم الذين بعث إليهم لوط لوطا . وإنكارهم لرسالة رسول واحد جحود بسائر الرسالات ، وتكذيب لكافة أنبياء الله ورسله .

يقول أبو الفداء اسماعيل بن كثير : وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التى أهلكهم الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت المقدس،بينها وبين بلاد الكرك والشوبك . ا هـ

(إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين)

حضهم نبيهم على عبادة الله وتوحيده ، وطاعته واتباع ملته ، والتصديق بما اوتمن عليه لوط من كلمات الله ورسالته .

---

(1) سورة الانبياء ، الاية ٨١ .

(فاتقوا الله وأطيعون)

فاحذروا أن تشركوا بالله شيأ ، أو تخالفوا عن أمره ، واستجيبوا لي فيما أبلغكم عن ربى .

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾

(وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى على رب العالمين)

ما أطلب على نصحى لكم مقابلا ، ولا أتطلع من ورائه إلى شيء مما في دنياكم ، فإن مثوبتى على عظتى تضمّن لي بها رب الكون ووليّه .

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

أنكر عليهم رسول الله ما ابتدعوا من فاحشة — فالاستفهام إنكارى — ولم يسبقهم أحد في إتيان الرجال ، وغشيان الذكور ، وقضاء الشهوة البهيمية في الأدبار ، دون أقبال الأزواج ، زُين لهم سوء عملهم ، فأتوا الرجال ، وقطعوا السبيل ، وارتكبوا في نواديهم المنكر ، فتجاوزوا ما أحل الله لهم من الفروج إلى ما حرم عليهم منها ، مستعلنين بذلك غير مستخفين .

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى

ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾

(قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين)

ضاقوا بنهي نبيهم عن الفاحشة والمنكر ، وأنذروه بالطرد من أرضهم ما لم يكف عن زجرهم ، وتقبيح صنيعهم في استمتاعهم بأدبار ذكرانهم .

(قال إني لعملكم من القالين)

مع أنه صلى الله عليه وسلم كان حديث عهد بهجرة ، وقد ترك ملة قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، ومع أنه لم تكن له عصبة يؤازرونه ، وما آمن معه إلا قليل ، كل هذا لم يردّ نبي الله عن البراءة من جرمهم ، وإعلان السخط على ذميم فعلهم ، وواجههم بأنه من الكارهين لإثمهم ؛ والقالي : المبغض .

(رب نجني وأهلي مما يعملون)

دعا ربه العصمة من السوء والفحشاء ، وسأله ضارعاً أن يحميه وأهله من أوزارهم ، وينجيه من عاقبة فجورهم .

(فنجيناه وأهله أجمعين)

استجاب الله تعالى دعوته ، وحماه وعشيرته من خزي الفسوق،وبطشة الله بأهل العقوق والمروق ، وقد حكى القرآن الكريم ما حملته الملائكته وأنفذته من أمر الله في لوط وأتباعه ، وفي العاصين لربهم ونبيهم : (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) (١) .

(إلا عجوزا في الغابرين)

إلا امرأته شاء الله أن يجعلها في الهالكين ، بما رضيت عن طغيان المفسدين ، فبقيت لتنال جزاء الظالمين .

قال النحاس : يقال للذاهب : غابر ، والباقي : غابر .

وحين جاء أمر الله إلى لوط ليبدأ رحلة النجاة ، علم أن امرأته لن تسعد برفقة الفائزين : (.. فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد

---

١) سورة الذاريات . الاية من ٣٢ الى ٣٦ .

إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ..)(١) .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

(ثم دمرنا الآخرين)

ما إن ابتعد لوط ومن معه عن القرية التى كانت تعمل الخبائث حتى فاجأت المجرمين صيحة من ملائكة الله المكرمين صبيحة نجاة المؤمنين ، وأعقبتها نقمة بئيسة ، فاقتلعت تلك المدائن ثم رفعت وقلبت منكسة ، كما بينت الآية هذا العذاب الوبيل : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ..) (٢)

(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين)

صبّ الله تعالى على مكذبى لوط مطرا سيئا ببغيهم ، وما كان ماء منهمراً ، وإنما كان صخراً وناراً ، وفى ذلك يقول الله الحق : (.. وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) (٣) .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)

إن في إنجائنا للمتقين ، وإهلاك الباغين الفاجرين لعلامات على نصرتنا للمؤمنين ، وقدرتنا على محق الطاغين ، وإن قل عدد المصدقين ، وكثرت جموع المبطلين .

(وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

وإن مولانا ومصلح شأننا لقوى لا يغالب ، رحيم بالقائمين على الحق ، والحافظين لحدود الله .

---

١) سورة هود . من الاية ٨١ .
٢) سورة هود . من الاية ٨٢ .
٣) سورة هود . من الاية ٨٢ والاية ٨٣ .

من سورة البقـــــرة

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

(وإذ ابتلى إبراهيـــم ربه بكلمات فأتمهن)

اختبر الله تعالى إبراهيم بتكاليف فقام بها وأنفذها ، ورعاها حق رعايتها ، وبهذا امتدحه القرآن الكريم (وإبراهيم الذى وفىّ) (١) .

والمفسرون من السلف أوردوا في المعني بالكلمات التى ابتلى بها إبراهيم آراء شتى : فمن قائل : إنها شرائع الإسلام ثلاثون سهما ، عشر منها في قول الله سبحانه : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله الله وبشر المؤمنين) (٢) . وعشر في الآية الكريمة : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (٣) . وبقيتها في مستهل سورة (المؤمنون) (٤) وفي سورة (سأل سائل) (٥) .

إلى قائل عنى بهما سنن الفطرة ، كالاغتسال والختان وقص الشعر والظفر ..

---

١) سورة النجم . الاية ٣٧ .
٢) سورة التوبة . الاية ١١٢ .
٣) سورة الاحزاب . الاية ٣٥ .
٤) من أول قوله تعالى : (قد افلح المؤمنون) الى قوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) .
٥) من أول قوله : (الا المصلين) الى قوله : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) .

ومنهم من قال : عنى بها ذبح الولد ، والهجرة من البلد ، والنار التى ألقوه فيهـــا .

لكن لعل الأقرب إلى الصواب أنها الأمور المذكورة في هذه الآية والآيات الخمس التالية لها : أن جعله للناس إماما ، أن طالبه وإسماعيل بتطهير البيت ، وأن يرفع وإسماعيل قواعد المسجد الحرام،وأن يتضرعا بما وجههما إليه من تشريفهما وذريتهما بالإسلام ، وتعلم مناسك الحج ، وإرسال النبى محمد إلى الأمة بالكتاب والحكمة ، والله أعلم .

(قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى)

أعلم الله خليله إبراهيم أنه صيره قدوة ، يتأسى به ويأتم أهل الإيمان ، فيتبعون هديه ، ويقتفون أثره ، فسأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته أئمـــة يهتدى بهم مثله .

(قال لا ينال عهدى الظالمين)

كأنه وعد من الله أن يجعل في ذرية إبراهيم الإمامة إلا من كان منهم ظالما ، لأن التكرمة بالإمامة لا يليق لها إلا أهل اليقين بالله،والاستقامة على منهاجه ، أما الجاحدون والمارقون فهم بالمهانة والحرمان أولى .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا)

واذكر وقت جعلنا الكعبة مرجعا للناس ، لا ينصرف عنها أحد إلا وهو يتمنى العودة إليها ، ويأمن كل من دخلها أو جاورها ، والمــراد المسجد والحرم كله ، بدليل قول الله تعالى : (.. هديا بالغ الكعبة ..) (١) أى الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام ، بل في سائر

١) سورة المائدة . من الاية ٩٥ .

أرجاء مكة ، فكل مكة منحر . وإنما خص البيت أو الكعبة بالذكر لأنهما سبب تشريف البقعة وتأمينها .

(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)

أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يصلوا عند مقام إبراهيم ، وهو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار ، أتاه اسماعيل – عليه السلام – به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار .

روى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين .

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركّع السجود)

ووصيتنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن يقيما البيت طاهرا نقيّا من كل شائبة شرك ، وأن يصوناه عن كل دنس ، ويبقياه موئلا لمن جاءه طائفاً أو معتكفاً أو مصلياً ، والمولى سبحانه أضاف البيت إلى نفسه (بيتى) تشريفاً للكعبة – وبحسبها أنها بيت الله – كما أن في ذلك ما يشير إلى أن تعظيم الكعبة تعظيم لجلال ربنا وأمره .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر)

دعا إبراهيم ربه أن يؤمن جيران حرمه ، وسدنة بيته ، وأن يجعل

هذا الوادى آمنا سكّانه من كل خوف ، تجبى إلى أهله ثمرات كل شىء ، للمؤمنين منهم والمصدقين بالله ولقائه .

يقول نظام الملة الحسن النيسابورى : (من الثمرات) من للابتداء لا للتبعيض ، بدليل قوله : (يجبى إليه ثمرات كل شىء)[1] وإنما سأل إبراهيم – عليه السلام – الأمن ، وأن يجبى إليه الثمرات وإن كان يتعلق بالدنيا ، لأن البلد إذا كان آمناً ذا خصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى ، ويكون سبباً لاجتماع الناس وإتيانهم إليه من كل أوب زائرين وعاكفين ، وطلب الدنيا لأجل الدين من سنن الصالحين ... اهـ

(قال ومن كفر فأمتعه قليلاً)

أبَى الله إلا أن يجعل الرزق عطاء منه إلى البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، لكن نعمة المؤمنين في الدنيا موصولة بنعيمهم المقيم ؛ ومتاع الكافر ينقطع بموته .

(ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير)

ثم يجر إلى السعير ، يصلى جهنم مذموما مدحورا ، لا تنفعه متعه التى عاش يتقلب فيها . يقول الله الحق سبحانه : (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون)[2] . و(أضطره) أى تسوقه ملائكتى إلى الجحيم سوقا وتلجئه إلى دخولها ، وبئس المرجع مرجعه : (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)[3] .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

واذكر وقت رفع إبراهيم لدعائم الكعبة ، وبنيانه فوق أسسها حتى ارتفعت ، وإسماعيل يشاركه ويعاونه ، وهما يسألان الله أن يتقبل

---

١) سورة القصص . من الاية ٥٧ .
٢) سورة الشعرا . الايات : من ٢٠٥ الى ٢٠٧ .
٣) سورة الصافات . الاية : ٦٨ .

منهما عملهما ، فهو السميع لدعائهما ، العليم بإخلاصهما .

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

كما دعوا الله أن يثبتهما على الإسلام والانقياد لمنهاجه ، وأن يجعل نعمة المدخول في الإسلام ، والامتثال لدين الله وشرعه ممتدة في أعقابهما وذريتهما. وقد استجاب الله لهما وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب والحكم : (.. ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) [1] .

(وأرنا مناسكنا)

علمنا كيف نعظم بيتك ، ونحج إليه ، ونؤدى شعائره .

(وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)

واقبل رجوعنا إليك ، إذا وقع منا خلاف الأولى ، وأنبْنا وعدْنا إلى خير ما تحب وترضى ، إنك قابل التوب ، رحيم بالخلق .

رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك)

يا مصلح الكون ومطاعه ! أرسل في نسلنا نبياً منهم يبلغهم دلائل وحدانيتك وعظمتك ، ويقرأ عليهم وحيك وكلماتك .

---

1) سورة الصافات من الاية ١١٣ .

(ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)

ويعلم هذا النبي أُمته قراءة القرآن وتفهم معانيه وحقائقه ، والحكمة التي هي الإصابة في القول والعمل جميعاً ، أو السنة النبوية ، ويطهرهم بالوعظ والزجر عن الركون إلى العاجلة ونسيان الآجلة ، ويربيهم على الطاعة والإخلاص لله ، أنت القادر الذي لا يغلب ، المتقن لكل ما قضيت وأبدعت .

ولقد بوركت الأمة وبورك لها في نبيها بدعوة أبي الأنبياء إبراهيم — عليه أفضل الصلوات والتسليم — فشاء الله أن يتعبدنا بما تقدم وفاء لحق أبينا خليل رب العالمين ، فاللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .. وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

إسماعيل

من سورة مريم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾

ثناء على إسماعيل وذكر حسن له أن يجيء نوه في القرآن العظيم ، وأن يشرفه بوصفه بصدق الوعد(١) — وكل الأنبياء إذا وعدوا صدقوا —

١) مما يقول القرطبي في تفسيره الجامع لاحكام القرآن : من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « العدة دين » وفي الاثر : وأي المؤمن واجب . وانما قلنا : ان ذلك ليس بواجب فرضا ، لاجماع العلماء على ما حكاه ابو عمر : أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء، فلذلك قلنا : ايجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به .. ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر ، وعلى الخلف الذم . وقد اثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده ووفي بنذره ، وكفى بهذا مدحا وثناء ، وبما خالفه ذما ... قال مالك : اذا سأل الرجل الرجل ان يهب له الهبة ، فيقول له : نعم ، ثم يبدو له أن لا يفعل فما أرى يلزمه ..ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله ان يقضيه عنه فقال : نعم ، وثم رجال يشهدون عليه فما احراه ان يلزمه اذا شهد عليه اثنان .. وفي البخاري في التاريخ الاوسط كما في تهذيب التهذيب: وقضى ابن اشوع بالوعد ، وذكر ذلك عن سمرة بن جندب .. أهـ ◄

جاء في تفسير غرائب القرآن : وخص إسماعيل بن إبراهيم بصدق الوعد وإن كان الأنبياء كلهم صادقين فيما بينهم وبين الله أو الناس لأنه المشهور المتواصف (1) من خصاله ؛ من ذلك أنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفّى به ... ا هـ

(وكان رسولاً نبيــا)

أوتي إسماعيل النبوة والرسالة .

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

وبلّغ رسالة الله إلى من أرسل إليهم ، يبدأ بأهله (2) في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لغيرهم ، أو أدّى الأمانة إلى قومه أقارب وأباعد — إذ أهل الرجل : قومه — فيلازمه في جميعهم ما يلزمه في خاصة أهله من النصح والإشفاق ، ورعاية المصالح الدينية والدنيوية .

وكان محمود العمل ، ناهضاً بما يرضى الله من فعل وقول .

◄ ويقول ابو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي : .. ولما توفى النبي صلى الله عليه وسلم قال الخليفة ابو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتني انجز له ، فجاء جابر بن عبد الله فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو قد جاء مال البحرين اعطيتك هكذا وهكذا » يعني ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين امر الصديق جابرا فغرف بيديه من المال ثم امره بعده فاذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها . اهـ

1) يقول بعض العلماء : الصواب : المتراصف اي المنتظم .

2) روى صاحب تفسير القرآن العظيم عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فان ابت نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فان ابى نضحت في وجهه الماء » . اخرجه ابو داود وابن ماجة . وعن أبي سعيد وابي هريرة رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « اذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » . رواه ابو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ له .

من سورة مــريم

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

لما تبرأ إبراهيم من المشركين وشركهم ، واعتزل أباه وقومه وتركهم يعكفون على أصنامهم ، عوضه الله أولاداً مباركين موحدين ، فبشره بإسحق ومن وراء إسحق يأتي يعقــوب .

ولقد كانت منّة ومعجزة أن يرزق إبراهيم نسلاً بعد أن تجاوز وزوجه سن الإنجاب ، وفي ذلك يقول الحق جل شأنه : (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)(1) .

(وكلا جعلنــا نبيا)

كلا من إسحق وابنه منحناه — كما منحنا إبراهيم — النبوة .

مما أورد صاحب تفسير غرائب القرآن : قال العلماء : ما خسر على الله أحد ، فإن إبراهيم لما ترك أباه الكافر وقومه فراراً بدينه ، عوّضه الله أولاداً مؤمنين أنبياء .. ا هـ

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

(ووهبنا لهم من رحمتنا)

أعطيناهم من خيرى الدنيا والآخرة ، من رزق الله تعالى وفضله

(وجعلنا لهم لسان صدق عليا)

---

(1) سورة هود . الآيات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

آتيناهم الثناء الحسن والذكر الجميل . عبّر باللسان عما يوجد به ، فالثناء كلام يوجد باللسان ، ووصف اللسان بالعلو ربما لأن جميع أهـل الملل يثنون عليهم .

ما تضمنه القسم الثاني من آيات

ما تضمنه القسم الثاني من أحاديث

القسم الثالث

من رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

يوسف ، موسى ، هرون
شعيب ، إلياس ، اليسع
ذو الكفل

من سورة يوسف

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ .

وعندما كبر يوسف ، واكتملت قوته ، واشتد استواؤه ، أعطيناه الحكمة العملية ، والحكمة النظرية ، فقد صبر – عليه السلام – على بلايا : كيد إخوته ، ومرارة غربته ، وسلب حريته ، فجازاه الله بما علّمه وأنه منجيه ومرضيه ومجتبيه .

روى الحسن النيسابوري عن صاحب الكشاف : (وكذلك نجزى المحسنين) فيه تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، متّقياً في عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . واعترض عليه بأن النبوة غير مكتسبة . والحق أن الكل بفضل الله ورحمته ، ولكن للوسائط والمعدات مدخل عظيم في كل ما يصل إلى الإنسان من الفيوض والآثار ، فالأنوار السابقة تصير سبباً للأضواء اللاحقة ، وهلم جرا . عن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله . ا هـ

أقول : والقرآن يشهد أن النقاء والصفاء يهيآن للمزيد من فيض السماء ، وصدق المولى العليّ الحكيم : (.. الله أعلم حيث يجعل رسالته ..) (١) (.. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ..) (٢) (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ..) (٣) (.. وما يذّكر إلا أولو الألباب) (٤) .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

---

١) سورة الانعام . من الآية ١٢٤ .
٢) سورة التوبة . من الآية ١٢٤ .
٣) سورة مريم . من الآية ٧٦ .
٤) سورة البقرة من الآية ٢٦٩ .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معـــاذ الله)

من المعلوم أن إخوة يوسف لما رأوا شدة حب أبيهم له ثارت نفوسهم ، وكادوا لأخيهم ، حتى ألقوه في بئر بالصحراء ، وأخبروا والدهم مساء يوم المأساة أن ذئباً قد أكل أخاهم ، وقدّموا له قميص حبيبه ملطخاً بالدماء . وبعدها مرّت قافلة تستقى من البئر فعثروا على يوسف الغلام ، وحملوه إلى مصر فباعوه إلى ملكها ، وأحد فراعينها ، فأنزله قصره ، وعدّه بمثابة ولده ، واستحفظت امرأة العزيز على العناية بشأنه ، وتكريمه ورعاية قدره ، كما نطقت بذلك الآية الكريمة : (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ..) (١) .

لكن المرأة برّح بها جمال حسه ، وكمال نفسه ، فصممت على الاستمتاع به ، وسعت إلى ارتكاب خطيئتها بإغلاق الأبواب ، ودعته إلى نفسها وقالت : هلمّ إلىّ ، فسارع — مستجيراً بالله ملتجئاً إلى حماه — وأعلمها أنه مستعيذ مما طلبت ، ومعتصم بخالقه ومولاه .

(إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون)

أراد أن يردّها عن غوايتها فذكرها بعظيم سطوة العلى الأعلى،ثم بصّرها بأمانة كبير الدار وراعيها — الذى هو زوجها — ويزيد من وجوب رعاية حقه أنه أكرمنى فلا يليق أن أهينه أو أخونه ، وأستحل عرضه ولا أصونه ، إنى أعلم أن المساس بحق غيرى ظلم ، والظالمون خاسرون .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

---

١) سورة يوسف ، من الاية : ٢١ .

(ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه)

العقل والنقل يشهدان أن ما همّت به المرأة كان غير الذى همّ به يوسف ، فإن الآية السابقة بينت أنها تهيأت له ، ودعته إلى قضاء وطرها وقد غلّقت الأبواب وليس بابا واحدا ، وإنما أكثر ، وما منعها من إتمام جريمتها بعد أن مضت في سبيل تنفيذها إلا ما كان من إصرار يوسف على مخالفتها . فهل يمكن بعد هذا اعتبار الهم مجرد حركة نفسية منها ؟ وقد ثبت أنها عزمت وصممت وعملت ما استطاعت ليتم لها ما أرادت !

وحاشا لله أن تتحرك نفس يوسف نحو زوجة كبيره ، فإن الله قد اختاره على علم ، وثبت بالحديث الصحيح أنه من صفوة البشر .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فعن معادن العرب تسألونى » ؟ قالوا : نعم . قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » .

والذى اجتباه ربه ، وآتاه الحكم والعلم ، وبشّره بالعلو والرفعة (.. وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)(١) .

والذى بادر إلى تفظيع ما طلبت المرأة التى هو في بيتها قائلا : (.. معاذ الله ..) أى هذا أمر الهروب والخلاص منه باللياذ بالله . من هذا شأنه لا يتأتى منه هم بفاحشة .

لا يقال : إن الهمّ بالذنب لا شىء فيه . لأنا نقول : جاء في الحديث الصحيح .. من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : « .. ورجل راودته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله .. » فكيف بيوسف الصديق ؟ !

ولا يقال : إن اكتمال الرجولة يستتبع حتما ميل النفس إلى المرأة خصوصاً إذا تجمّلت وتحايلت . فإنا نعلم أن خاتم النبيين – عليه الصلوات والتسليم – كان من أقوى الرجال وأشدهم ، ومع ذلك فقد كان صلى

---

١) سورة يوسف ، من الاية : ١٥ .

الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها .

إن أهل التقى والحياء لا تتحرك نفوسهم إلا إلى ما هو خير وكريم .

فلم يبق إذا إلا أن تكون قد همّت به لتحمله على إنفاذ ما طلبت ، وهم بها ليقصيها ويبعدها بدفعها أو ضربها لولا أن قلبه اتجه إلى أنه لو دفعها فقد تتعلق به التهمة . والله أعلم .

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

مثل ذلك التثبيت ثبتناه لنصرف عنه مقاله السوء ، ونحميه من معرّة الزنى ؛ إنه من الذين استخلصناهم للنبوة ومن سلالة عباد مصطفين أخيار ، فهو ابن يعقوب نبي الله ابن اسحق رسول الله ابن ابراهيم خليل الله .

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ج قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ
أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

أدبر يوسف هارباً من محاولة المرأة ، وتبعته نحو الباب ، وهو يحاول الإفلات ، وهي تحاول التشبث به ، فشقت قميصه من خلف ، وتجاوزا الباب فإذا بالعزيز هناك ، فسارعت زوجته قائلة له : ما أرى عقاباً لمن قصد بأهلك القبيح إلا أن تسجنه ، أو تعذبه وتوجعه .

قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ج وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّـا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْـدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(قال هي راودتني عن نفسي)

لم يبق أمام يوسف وقد اتهمته بما هو منه بريء إلا أن يعلم زوجها بحقيقة أمرها ، فقال : بل هي التي طالبتني لأطاوعها على قضاء شهوة ففررت ! .

(وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين)

لما عارض قول يوسف قولها ، قال واحد من أهل المرأة — طفل أنطقه الله ، أو رجل من قرابتها — : إن كان قميص يوسف شقّ من أمام فهذا يعني أنه هاجمها فقاومته ، وان كان القميص شقّ من خلف فذلك يعني أنه فرّ منها فلاحقته ، وأبى عليها ما طلبت ، فتشبثت بقميصه مدبرا كيلا يفلت .

وهكذا كان قميص يوسف أحد الأدله الحسية على براءة الصديق من التهمة الواهية الدنيّة .

إن في قصص المرسلين لعبرة ، فانتزاعه وهو غلام من مسقط رأسه ومأنس نفسه ، وإخراجه من حنّو الأبوّة وعز العشير ، إلى مهالك البيداء ، وأغوار بئر في منقطع صحراء ، ثم استلاب حريته ، وادعاء عبوديته ، كل ذلك يبتلى به ناشىء ما زال غض الإهاب ، فما يسخط على الخالق سبحانه ولا على الخلق ، وإنما يصمد لتلك الأهوال مؤملا في صلاح الأحوال .

فلعلنا نروى أنفسنا وأولادنا سير الأكرمين ، فلا نهن لما يصيبنا ، بل نبقى بالعزم متماسكين ، ونترقب كشف الكربات من لدن مولانا البر الرحيم .

وتستوى مواهب يوسف الصديق — عليه وعلى سائر النبيين أفضل الصلوات والتسليم — فإذا بهذا الممتلىء حكمة وعلما ، المكتمل قوة ورسما ، ليس إلا رهين قصر تهيمن عليه زوجة حاكم ، وليتها أحسنت

ملكته ، ولكنها اجتهدت في محاولة إغوائه ، فما ضعف ولا استكان ، ولا تدنس أو قنط من فيض الرحمن ، وإنما عاذ بالله فأعاذه ، وآثر ظلمات السجون ، على المجون والفتون .

وفي محبسه يظل داعياً إلى توحيد الله ، مستقيما على شرعه وهداه ، متبرئا من ضلال الملحدين والدهريين ، وفي ذلك يقول القرآن الحكيم : (.. إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (١) .

فلتكن لنا في رسل الله القدوة الصالحة ، نمضي في طريق الطهر والحق ، لا تصرفنا عنه الصوارف ، ولا تفتننا الشهوات ولا الزخارف ،ونحس حين نأوى إلى الله ، ونعمل على رضاه، أننا السعداء بطاعته ، واحتمال المكاره في سبيل نصرته . وكيد الكائدين لن يثنينا عن الدعوة إلى الإيمان ومجادلة الزائغين : (يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢) .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

(وقال الملك ائتونى به)

بعدما عرف العزيز أن زوجته تحدثت عن يوسف بالبهتان ، وأنه عفّ نقيّ : (... قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض

---

١) سورة يوسف . من الاية : ٣٧ والاية ٣٨ .

٢) سورة يوسف . الايتان : ٣٩ ، ٤٠ .

عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) (١) .

وتحدث نسوة بالمدينة عن هيام امرأة العزيز بفتاها ، فاستضافتهن ثم قالت ليوسف : (... اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) (٢) .

وهكذا انتقلت المراودة من الخلوة إلى الجلوة ، واستعلنت في ملأ من النسوة ، واصطبغت بالإهانة والقسوة ، وما ليوسف من نجاة إلا بالركون إلى أبر عاصم ، وخير حافظ : (قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) (٣) .

أبرأ من حولى إلى حولك، فلا تكلنى إلى نفسى ولا إلى غيرك ، فالمهدّى من هديت ، والمعصوم من عصمت . (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) (٤) .

على الرغم من وضوح الدلائل ، وظهور العلامات والمعجزات القاطعة بطهارة يوسف من كل إثم ولمم وريبة — على الرغم من ذلك — زجّوا بيوسف الكريم في السجن ، ومكث حبيساً بضع سنين .

وبعدها — وقد شاء الله أن يبحث الملك عمن يعبر له رؤيا — دُلّ على يوسف ، فأوّلها له ، فبعث في طلبه ليدنيه ويقربه .

(فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك)

فعندما جاء مبعوث الملك إلى يوسف لم يجبه ، ولم يصاحبه ، ولم يسارع إلى ما دعاه إليه من ترك هذا المحبس ، صبراً منه — عليه صلوات الله وسلامه — وأناة ، وشدة حرص على تبرئة ساحته من الفرى والتهم ، قبل أن يخرج ويشارك في الحكم ، فيظن الناس أن الملك قد صفح عن ذنبه . فأبى أن يخرج إلا بعد ثبوت أنه حبس دون جريمة .

---

١) سورة يوسف . من الايات ٢٨ ، والاية ٢٩ .

٢) سورة يوسف . من الاية ٣١ ، ٣٢ .

٣) سورة يوسف . الايتان : ٣٤ ، ٣٥ .

وإن رسول الله – محمداً – صلى الله عليه وسلم ليثنى على حلم يوسف وأناته ، وصبره وكرمه ، وأنه لم يشترط – حين سئل عن تعبير رؤيا الملك – أن يخرجوه من محبسه لقاء تأويلها لهم .

مما روى البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » . أى لخرجت سريعاً وبادرتهم الباب (١) .

(فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن)

قال يوسف لمبعوث الملك : عد إلى سيدك ، وقل له يتحقق من أمر النسوة اللاتى جلسن إلى مائدة امرأة العزيز ، ويتثبت من حالها وأحوالهن .

(إن ربى بكيدهن عليم)

الله مولاى أحاط علمه بما كدن ودبّرن ، وسيجازى كلاً بالقسط .

فرجع المبعوث إلى سيده ، وأخبره بمطلب يوسف ، فجمع النسوة وامرأة العزيز ، يستجلى منهن حقيقة ما حدث .

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

---

١) يقول ابو عبد الله القرطبي : فان قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والاناة وترك المبادرة الى الخروج ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ! فالوجه في ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم انما اخذ لنفسه وجها اخر من الرأي ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت انا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ، وذلك انهذه القصص والنوازل هي معرضة لان يقتدى الناس بها الى يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الاحزم من الامور ، وذلك ان ترك الحزم في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وان كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك فالحالة التي ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه اليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد . أهـ

(قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه)

ما شأنكن حين عرضتن على يوسف ما اشتهيتن ؟ ! .

(قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء)

أجبن على سؤال الملك قائلات : (حاش لله) تباعد عن هذا المجال يوسف ! ، ولله تنزه عما يشين ، ما نشهد عليه إلا بالعفة وما رأينا منه إلا براءة وطهرا .

(قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)

جاء دور السيدة والمضيفة والمتسببة في حبس يوسف لتنبيء الملك بجلية الأمر فقالت : الآن تميزت حصة الحق من حصة الباطل ، أنا التى راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين .

أبى الله الا أن تكرر إقرارها بأنها الخاطئة ويوسف بريء مما قذف به ، وتشهد وتؤكد أنه العف الصادق الأمين .

برأ الله يوسف ومكن له ، وجمع بين تصريف شئون الحكم ومتابعة الدعوة إلى الحق ، يذكر الفراعين وملأهم بجلال الله وسطوته ، ويسوق الدلائل والعلامات على وجوب توحيده وطاعته ، وفي ذلك يقول القرآن على لسان مؤمن آل فرعون : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ...) (١) .

ويتردد إخوة يوسف عليه ، يطلبون رفده ثلاث مرات ، وهو يعرفهم وهم لا يعرفون ، وفي المرة الثالثة سألوه : (... أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (٢) .

ولو لم يكن له إلا أنه أخرج من داره ، وحرم لطف أبيه — أحوج ما يكون إليه — لكانت له بشرى المخرجين من ديارهم بغير حق : (والذين

١) سورة غافر ، من الآية ٣٤ .

٢) سورة يوسف ، من الآية ٩٠ .

هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) (١) .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا)

حلفوا بالله أن الله قد فضّله عليهم بالعلم والحلم والنبوة والملك .

(وإن كنا لخاطئين)

وأقروا بذنبهم ، وأنهم تخطّوا الحق في تعاملهم معه .

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(قال لا تثريب عليكم اليـــــوم)

طمأنهم أخوهم بأنه لن يوبخهم على ما ارتكبوا ، ولن يؤاخذهم بما اكتسبوا .

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)

ودعا الله أن يستر عليهم ما أذنبوا ، ويدخلهم في عفوه،إنه أرحم الراحمين .

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

(اذهبو بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا)

عودوا إلى بيتكم ، ومعكم هذا الثوب من أثوابي ، ليفرح أبي بملامسته ، فيبرئه الله من علته ، ويردّ إليه بصره ، بعد أن عمي حزناً عليّ .

---

(١) سورة النحل ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(وأتوني بأهلكم أجمعين)

واستقدموا أهلكم كلهم ، لينعموا أن أذهب الله غمّهم ، وجمع شملهم .

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (1) ذكرى لكل صبّار شكور ، أن صبر المستيقنين يعقبهم الله به الرفعة والتمكين : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) (2) .

والشكر يورث المزيد ، مصداقا لوعد الله : (... لئن شكرتم لأزيدنكم ...) (3) .

والعفو يزيد الله به العافين تمكينا ، فما زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا .

فاللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت اللهم آمين .

موسى

من سورة القصص

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم)

ألهم الله تعالى أم موسى إذا وضعته أن ترضعه ، فإذا خشيت عليه من هلاك يتهدده فلتقذف به في النهر — نهر النيل —

1) سورة ق ، الاية : ٣٧ .
2) سورة السجدة ، الاية : ٢٤ .
3) سورة ابراهيم ، من الاية ٧ .

وكان فرعون لا يدع وليدا غلاما إسرائيليا إلا قتله – وموسى بن عمران من بنى إسرائيل الذين كانوا يسكنون مصر آنذاك – وإلى هـذا يشير قول الله سبحانه : (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين) (١) .

(ولا تخافي ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

اطمئنى إلى سلامته ، واطردي عن خاطرك تهيّب إصابته ، ولا تبتئسى لفراقه ، فإن الله تعالى سيردّه إليك ، وينعم عليه بالنبوة والرسالة .

ولقد حملت الآية الكريمة بشريات بأنعم الله على موسى وأمه ، وعلى المصريين والإسرائيليين ، إذ ببعثته يُهدى الحائرون ، ويُستنقذ المعذّبون ، ويهلك الظالمون ، ومن هنا قرن مجيء موسى بتحقيق مراد الله في إزهاق الباطل ، وتدمير المبطلين : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونُرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (٢) .

وما أعظم قدرة الله التى أنجت رضيعاً رهين صندوق ، ملقى في نهر جار . يقول المولى جل علاه : (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليمّ بالساحل ..) (٣) .

فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

بتقدير العزيز العليم رسا الصندوق الذى بداخله موسى على ساحل أمام دار فرعون ، وحبب إليهم أن يلتقطوه ، فلما رأوه رعوه وصانوه ومكر الله بهم ، فسخرهم للحفاظ على من يطوح بسلطانهم ، جـزاءً

١) سورة القصص . الاية ٤

٢) سورة القصص . الايتان : ٥، ٦ .

٣) سورة طه . الاية ٣٨ ومن الاية ٣٩ .

لتجبرهم وبغيهم . فاللام في (ليكون) للعاقبة وليست للتعليل . إذ ما التقطوه لأجل معاداتهم وحزنهم ، وانما أعقبهم الله ذلك بجورهم وعدوانهم .

وفي الآية تحذير من التعاون على الإثم ، وبيان أن مشير فرعون (هامان) وقوتهما الضاربة (وجنودهما) شركاء في الطغيان ، فلا جرم يقاسمونه الهزيمة والخسران .

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

كأنما توجهت نفس فرعون إلى ذبح الوليد الصبوح ، فناشدته امرأته أن يبقيه ، أملا في نفع ينالهم بسببه ، أو أن يتبنّوْه ، وأخبرت زوجها بأن عينها تقرّ لمشهد هذا الغلام ، وما تظن إلا أن زوجها كذلك .

وإنه لصنع الله الذى أتقن كل شيء ، أن يجعل لموسى هذا الودّ في القلوب ، وبذلك يمتن عليه البّر الرحيم سبحانه : (... وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)(١) .

وما أحسّوا أن الله سيتبر به بنيانهم .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

بعد أن قذفت أم موسى وليدها داخل صندوقه في النهر ، وذهب به الماء إلى حيث لا تعلم ، لم يبق في قلبها شيء إلا همّ موسى ، وملك الإشفاق عليه لبّها ، حتى أوشكت أن تذيع خبره ، وتعلن أمره ، لولا أن أفاض الله عليها صبرا ، لتبقى على يقينها في وعد الله أن يرده إليها .

(١) سورة طه ، الآية ٣٩

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

أمرت ابنتها أن تتبع أثره ، وتتلمس مستقره ، فعلمت ما كان من شأن التقاطه ونجاته ، وكأنها لاحقت السعى حتى نظرت إليه من حيث لم يعلموا صلتها به .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

حرّمنا عليه – تحريم منع لا تحريم شرع – أن يمتص لبناً من مرضع غير ثدى أمه ، فكان كلما قرب من ثدى لفظه ، حتى قالت لهم أخته : ألا أعرفكم مرضعا يقبلها وليدكم هذا ، ويعنون برعايته ؟ .

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

فلما علموا أنه قبل ذاك الثدى ، رضوا أن يتركوه إلى صاحبته ترضعه ، وهكذا أعاده الله تعالى إلى أمه لتطمئن عليه وتهنأ بالا ولا تغتمّ ، ولتستيقن بأن تحقق موعود الله واقع لا محالة ، ولكن أكثر الفرعونيين – شأن كل الضالين – غفلوا عن عاقبة ما يصنعون .

نقل عن الزمخشري : وجوز في الكشاف أن يتعلق الاستدراك بقوله : (ولتعلم) المقصود أن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني وهو العلم بصدق وعد الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي الذى ما سواه تبع له ، من قرّة العين وذهاب الحزن .

ويقول صاحب تفسير القرآن العظيم : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى حكَم الله في أفعاله ، وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها في نفس الأمر . كما قال تعالى : (..وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ..) (١) وقال تعالى: (.. فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (٢) . ا هـ

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

مما أورد الحسن النيسابورى : ... آتيناه سيرة الحكماء والعلماء قبل البعث فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه . ا هـ

وجاء في جامع البيان : .. وقوله : (وكذلك نجزى المحسنين) يقول تعالى ذكره : وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا ، كذلك نجزى كل من أحسن من رسلنا وعبادنا فصبر على أمرنا ، وأطاعنا ، وانتهى عما نهيناه عنه . ا هـ

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ

---

١) سورة البقرة ، من الاية ٢١٦ .

٢) سورة النساء ، من الاية ١٩ .

مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلهـــــا)

دخل موسى البلدة بعد أن كبر وتكامل نمـــــوه .

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن : ... أما المدينة فالجمهـــور على أنها القرية التى كان يسكنها فرعون عن فرسخين من مصر. وقال الضحاك : هي عين شمس .. وحين غفلتهم : بين العشاءين. وقيل : إن الغفلة لموسى من أهلها ، وذلك أنه لما بلغ أشده وآتاه الله الرشد علم أن فرعون وقومه على الباطل ، فكان يتكلم بالحق ، ويعيب دينهم ، وينكر عليهم ، فأخافوه ، فلا يدخل قرية إلا على تغفّل وتستّر . ا هـ

(فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلّ مبين)

فحين دخل وقتذاك أبصر مشاجرة بين اثنين أحدهما إسرائيلى وثانيهما قبطىّ ، فطلب الإسرائيلى معونة موسى ، فدفع القبطىّ بجمع كفه فسقط ميتا ، فسارع موسى إلى الندم على ما حدث ، وأن الشيطان حين يثير في النفس الغضب يورد الغاضب موارد الضلال ، فعل العدو المظهر عداوته .

مما روى مسلم في صحيحه عن سالم بن عبدالله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ...وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ . فقال الله عز وجلّ : (.. وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتنّاك(١) فتونا) » (٢)

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ

---

١) اختبرناك اختبارا ، أو اخلصناك اخلاصا .

٢) سورة طه . من الاية : ٤٠ .

هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾

توّجه موسى إلى ربه ضارعاً أن يستر عليه خطيئته إذ خالف الأولى فقتل دون أن يؤمر ، وقبل أن يؤذن له — وإن كان المقتول كافرا — فتقبّل الله توبة موسى ، وتجاوز عن مخالفته تلك ، فإن المولى سبحانه واسع المغفرة والرحمة .

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

كأنما ذلك عهد عاهد به موسى ربه ، بحق ما أنعم به عليه من الهداية والولاية فلن يعين كافراً على كافر .

وسياق الآيات في موضع آخر يبين أن موسى لم يوح إليه إلا بعد ذلك . يقول الله سبحانه — حكاية على لسان موسى مخاطباً فرعون : (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربى حكما وجعلنى من المرسلين) (١) والفاء تفيد الترتيب بين ما قبلها وما بعدها ، فالفرار من طلبهم له متقدم ، والرسالة من بعد .

كما أن الآيات التى سنوردها — إن شاء الله — من سورة القصص بيّنت أن الخروج من المدينة فالتوجّه إلى مدين ، فقضاء السنين هناك فالعودة بالأهل ، جاء على أثرها النداء الآلهى : (... يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) .

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

(فأصبح في المدينة خائفاً يترقب)

في اليوم التالى لمقتل القبطى الذى وكزه موسى غدا ابن عمران يتوجس ويستعلم عمّا هم صانعون به من أجل قتيله ، وينتظر مكروهاً قد يحل به .

(١) سورة الشعراء . الآية ٢١ .

(٢) سورة القصص . من الآية ٣٠ .

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن : ... الخوف لا ينافي المعرفة بالله والتوكل عليه ... ، والخوف من الأعداء سنّة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم ... ومنه : حفر النبى صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد . ثم كان من أصحابه مالا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ، تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ، وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبت (١) يا عمر ، كلا والله ! كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار — أو أرض — البعداء (٢)البغضاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! ونحن كنا نؤذَى ونخاف . الحديث بطوله خرجّه مسلم .. ا هـ

(فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه)

بينما موسى يسير في مدينة فرعون يتوقع أن يطلب ، فإذا به يلقى في طريقه متقاتلين ، ويصيح به أحدهما طالباً معونته ونصرته فإذا المستغيث هو الإسرائيلى الذى خلّصه موسى بالأمس .

(قال له موسى إنك لغوىّ مبين)

نسبه موسى إلى الغواية لتتابع منازعاته ، أو لأنه مضلّ ظاهر الضلالة ، حيث تسبب في الوكزة التى أدّت إلى موت الفرعوني .

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ

---

١) أي اخطأت . وقد استعملوا كذب بمعنى اخطأ .

٢) البعداء : اي في النسب . البغضاء : اي في الدين .

إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

(فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوّ لهما)

بعد أن وصف موسى المتقاتل الإسرائيليّ بأنه غاو أو مغوهمّ بتخليصه من الفرعونى الذى يشاكسه . ومعلوم أن الفرعونيين القبط كانوا يسخرون الإسرائيلين ويستبدّون بهسم ، على طريقة ملكهم التى أشير إليها في الآية الكريمة : (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين)(١) . وبهذا غدا كل فرعونى عدوّاً لكل إسرائيلى،وهكذا يمكن أن نفهم القول الكريم : (عدوّ لهما) أى لموسى والذى من شيعته [من قومه وعشيرته] . وليس بلازم أن تعنى (شيعته) أتباعه ، وأنه وقتئذ كان قد نبىء ، وكان هذا أحد المؤمنين به .

(قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس)

ظن الإسرائيليّ – وقد عنّفه موسى – أنه لن يدفع عنه الفرعونىّ ، وخاف أن تدركه وكزة قاضية ، فقال : يا موسى ! أعزمت على قتلى مثلما قتلت واحداً قبل يومنا هذا ؟

(إن تريد إلا أن تكون جبّارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)

ما يطيب لك إلا أن توالى سفك الدمـــاء ، فتتبع القتيل بقتيل ! ؟ وما تحب أن تكون مصلحا !

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ

---

١) سورة القصص ، الاية ٤ .

مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

كان جماعة من أهل القتيل قد ذهبوا إلى فرعون ، وطلبوا إليه أن يأخذ بحقهم من القاتل ، لكنهم لم يكونوا قد عرفوه ، فلما كان الغد ، وهاب الإسرائيلى غضبة موسى حين بدأ يستنقذه من عدوه ، وقال : قتلت بالأمس رجلا وهممت اليوم بآخر ، عندئذ تلقف القبطى الكلمة ، وانصرف عن الإسرائيلى ، وذهب بالخبر إلى باب فرعون ، فانتهى ذلك إليه ، فاشتد في طلب موسى ، فلما أمر بقتله سبق رجل بالخبر وجاء من أبعد مسافات المدينة إليه ، يجدّ السعى ويعجل ، وأخبر موسى أن رؤساء قوم فرعون يتآمرون بك ، ويتشاورون في قتلك بالقبطى الذى قتلته بالأمس .

(فاخرج إنى لك من الناصحين)

فارتحل عن مدينة فرعون هذه قبل أن يدركك الطالب ،إنى في إشارتى عليك بالخروج منها ناصح لك . و (من) في قوله سبحـــانه : (من الناصحين) بيانية .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(فخرج منها خائفاً يترقب)

فمضى موسى تاركا مدينة فرعون ، وجلاً يتوقع أن يباغته الذباحون الذين استنفرهم فرعون للظفر به .

(قال رب نجنى من القوم الظالمين)

ونادي موسى ربه سائلاً النجاة والسلامة من فرعون وملئه .

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن : وفيه دليل على أن قتله القبطى لم يكن ذنبا ، وإلا لم يكونوا ظالمين بطالب القصاص . ا هـ .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

(ولما توجه تلقاء مدين)

ولما جعل موسى وجهه ناحية مدين ، وهو ماض إليها ، و (تلقاء) بمعنى : قِبَل . يقال : دار تلقاء دار فلان إذا كانت تحاذيها وتقابلها .

مما أورد صاحب جامع البيان : ... ولم يصرف اسم (مدين) لأنها اسم بلدة معروفة ، كذلك تفعل العرب بأسماء البلاد المعروفة .. اهـ

(قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل)

سفرة الناشىء ، منفردا ، فارّا من طلب الأعداء ، بلاء ما ينجى منه إلا الله ، وقلة الدراية بالدروب والمسالك تقطع الرجاء إلا من ربنا وهداه ، وموسى عليه صلوات الله تضرع إلى مولاه آملا أن يبصره أعدل طريق وأقومه .

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان)

تابع موسى رحلته تاركاً مصر ، قاصداً مدين — وكان مُلْكها لغير فرعون — فلما بلغ ماء تلك المحلة رأى جمعاً كبيراً من الناس يسقون أنعامهم وبهائمهم ، ورأى على مقربة من تلك الآبار امرأتين تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس .

(قال ما خطبكما) ؟

سأل موسى المرأتين عن شأنهما ، وسبب تخلفهما عن سقى دوابهما .

قال ابن عطية : وكأن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يُشفَق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر ... اهـ

(قالتا لا نسقي حتى يُصدر الرعاء)

أخبرتاه أنهما ضعيفتان تكرهان المزاحمة والاختلاط بالرجال فهما لهذا تتأخران في السقي إلى أن يفرغوا . و (يصدر) بمعنى يرجع ، أي حتى يُرجع الناس مواشيهم عن الماء . و (الرعاء) جمع راع ، كصاحب وصحاب .

(وأبونا شيخ كبير)

وأخبرتا موسى أن أباهما أضعفه المشيب ، وأوهنته الشيخوخة ، فهو لضعفه لا يقدر أن يباشر سقي ما شيته ، وما لهما من رجل يتولى عنهما ذلك الأمر .

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(فسقى لهمـــا)

رفع موسى عن بئر حجراً كان يغطيها فسقى لهما .

يقول القرطبي : فرقّ لهما موسى ، فعمد إلى بئر كانت مغطاة ، والناس يسقون من غيرها ، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة ؛ قاله ابن زيد . اهـ .

(ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير)

أروى لهما بهائمهما ثم آوى إلى ظل جلس فيه ، فسارع داعيا ربه أن يرزقه القوت ، وشكا افتقاره إلى الطعام . وكأنه استعمل الفعل الماضي — وهو يترقب ما يدنيه الله تعالى منه ويسوقه إليه — ثقة في أن هذا واقع بفضل الله كالمتحقق فعلا .

إذ المعنى : رب ! ما أحوجني وما أشد افتقاري إلى ما تنزل إليّ من زاد .

روى صاحب الجامع لأحكام القرآن : وكان لم يذق طعاماً سبعة أيام ، وقد لصق بطنه بظهره ، فعرّض بالدعاء ولم يصرح بسؤال (١). هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله (٢) ؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية ، ويكون بمعنى المال كما قال : (.. إن ترك خيرا ..) (٣) وقوله : (وإنه لحب الخير لشديد) (٤) ، ويكون بمعنى القوة كما قال : (أهم خير أم قوم تبع ..) (٥) ويكون بمعنى العبادة كقوله : (.. وأوحينا إليهم فعل الخيرات ..) (٦) . ا هـ

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

(فجاءته إحداهما تمشي على استحياء)

فلما ذهبت المرأتان إلى أبيهما قبل موعدهما الذى اعتادتا العودة فيه ، وحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذى سقى لهما ، أمر واحدة منهما أن تدعوه له ، فأتت إلى موسى ، وقدمت مستورة .

روى صاحب جامع البيان : .. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (فجاءته احداهما تمشي على استحياء) قال : لم تكن سلفعا (٧) من النساء خرّاجة ولاّجة،جاءته قائلة (٨) بيدها على وجهها .. اهـ

---

١) لم يسأل مخلوقا ، وانما سأل الله تعالى داعيا اياه ، واسمع المرأتين . يقول ابن جرير :قال هذا القول وهو بجهد شديد وعرض ذلك للمرأتين تعريضا لهما ان يطعماه مما به من شدة الجوع.

٢) نقل ابو جعفر الطبري عن مجاهد وابن زيد : ما سأل ربه الا الطعام . كما نقل عن ابن عباس وابن جبير : (انى لما انزلت الي من خير فقير) شبعة يومئذ .

٣) سورة البقرة . من الاية : ١٨٠

٤) سورة العاديات . الاية :٨ .

٥) سورة الدخان . من الاية : ٣٧ .

٦) سورة الانبياء من الاية : ٧٣ .

٧) السلفع : المرأة الجريئة على الرجال ، والخراجة الولاجة : كثيرة التردد على المجالس .

٨) مغطية وجهها بيدها ، او مغطية بكم ثوبها على وجهها .

(قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)

بلغت موسى طلب أبيها إياه ، والسبب الذى من أجله استدعاه .

يقول ابن كثير : وهذا تأدّب في العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة .. ا هـ

وعرف موسى أنه مستدعى ليكافأ على سقيه غنم المرأتين — رحمة بهما — ويؤجر جزاء عودة الغنم مرتوية قبل سائر الرعاء .

(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين)

لبّى موسى الدعوة ، ووصفت له داعيته الطريق حتى وصل إلى بيت أبيها ، فلما لقيه وكرّمه أنس إليه وأخبره خبره ، فطمأنه هذا المضيف إلى أنه نزل منزلا لا يضام فيه ، ولا ساطان للظالمين عليه .

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

(قالت إحداهما يا أبت استأجره)

قالت واحدة من المرأتين لأبيهما — وكثير من علماء القرآن على أنه شعيب عليه السلام(١) —: استأجر هذا الرجل فأنت في حاجة إلى من يلى لك الزرع والضرع . ونقل ابن جرير عن السدى أنها هى الجارية التى دعته .

(إن خير من استأجرت القوى الأمين)

أفضل من يرعى ويقوم على حفظ ماشيتك وما يصلحها الكيس الدين ، الكفء الأمين .

روى صاحب جامع البيان عن ابن زيد في قوله : (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) فقال لها : وما علمك

١) يقول ابو عبد الله القرطبي في كتابه الجامع لاحكام القرآن .. وأكثر الناس على انهما ابنتا شعيب عليه السلام ، وهو ظاهر القرآن ، قال الله تعالى : (والى مدين اخاهم شعيبا ..)

بقوّته وأمانته ؟ فقالت : أما قوّته فإنه كشف الصخرة التى على بئر آل فلان ، وكان لا يكشفها دون سبعة نفر . وأما أمانته فإنى لما جئت أدعوه قال : كونى خلف ظهرى وأشيرى لى إلى منزلك ، فعرفت أن ذلك منه أمانة .

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج)

عرض صالح مدين على موسى أن يزوجه واحدة من بنتيه هاتين – وربما كانت له بنات غيرهما – واشترط عليه لقاء تزويجه أن يعمل لديه مدة ثمان سنين .

مما أورد القرطبى في هذا الشأن : ... فمن الحسن عرض الرجل وليّته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح . قال ابن عمر : لما تأيّمت (١) حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر ، الحديث انفرد بإخراجه البخارى ... قوله تعالى : (إحدى ابنتى هاتين) يدل على أنه عرض لا عقد ، لأنه لو كان عقدا لعيّن المعقود عليها له ، لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبدىّ هذين بثمن كذا ، فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ، لأنه خيار وشىء من الخيار لا يلصق بالنكاح ... وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى في حديث الذى لم يكن عنده إلا شىء من القرآن ، رواه الأئمة ، وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله

١) أصبحت دون زوج .

صلى الله عليه وسلم : « ما تحفظ من القرآن » ؟ فقال : سورة البقرة والتى تليها ، قال : « فعلمها عشرين آية وهى امرأتك » .

(فإن أتممت عشرا فمن عندك)

الشرط أن تعمل ثمانية أعوام ، وزيادتها إلى عشرة موكولة إلى اختيارك وتطوعك . فعملك عندى فيما بين السنة الثامنة والعاشرة تفضل منك وتبرع .

(وما أريد أن أشق عليك)

ما أرغب ولا أحب أن ألزمك الوقت الأطول ، أو أكلفك من الأمر المجهد المثقل .

نقل عن أهل الاشتقاق : حقيقة قولهم : شققت عليه وشق عليه الأمر : أنه إذا صعب الأمر فكأنه شق عليه ظنه باثنين يقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه .

(ستجدنى إن شاء الله من الصالحين)

ستلقى تعاملى معك — بتيسير الله ومشيئته — على منهاج أهل الصلاح ، فلن تكون منى مشاحّة ، ولكن دأبى المياسرة والسماح .

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

(قال ذلك بينى وبينك)

ردّ موسى على ما عرضه شعيب من أنه سيزوجه إحدى ابنتيه على أن يستأجره ثمانى سنين فقال : هذا عهد بينى وبينك على كل واحد منّا الوفاء بما أوجب على نفسه .

(أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ)

إن قضيتُ القدر الواجب فلا أطالب بزيادة ، وإذا أردفته

بما تطوعت به لأكملها عشرا فذاك مني تبرع ، وأيهما أمضيت فلا أكون متعديا .

(والله على ما نقول وكيل)

وربنا شهيد على ميثاقنا ، وحفيظ على عقدنا وعهدنا .

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً)

بعد تواثق موسى وشعيب على ما تواثقا عليه ، أقام وزوجته مع ختنه وصهره يعمل في رعاية غنمه وما يحتاج إليه منه ، حتى أتم موسى أكمل الأجلين وأوفاهما ، وكأنه تشوق إلى زيارة أهله الذين تركهم بمصر منذ عشر سنين مضت ، فلما ارتحل ومضى بزوجه وغنمه في الطريق إلى عشيرته ، أحس في ليلة شاتية أنه ربما تغير به الدرب ، وحاول أن يوقد ما يستدفيء به وزوجه فما تيسر له إيقاد ، وهكذا إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه . فأبصر ناراً تتوهج من بعيد على يمين المتجه نحو جبل الطور فتكون صوب الغرب .

(قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا)

قال موسى لأهله: تمهلوا وانتظروا فقد أبصرت نارا ، وابقوا هنا حتى أذهب إليها .

(لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون)

وإنى لراج أن أسأل من عند النار هذه عن الطريق فيدلنا ، أو أعود إليكم بقطعة منها تستدفئون وتسخنون بها .

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

(فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة)

فلما وصل موسى إلى النار نودى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ..)(١) (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ...)(٢) .

نقل الحسن النيسابورى : و(من) الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطىء الوادى من قبل الشجرة ، فالثانية بدل من الأولى بدل الاشتمال ، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء ، ووصفت البقعة بالمباركة لأن فيها ابتداء الرسالة والتكليم . ا هـ .

(أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين)

نادى الله تعالى موسى بأن الذى يخاطبك ويكلمك هو الله رب العالمين لا إلـٰه غيره ولا رب سواه ، تنزه سبحانه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾

---

١) سورة القصص . من الاية ٤٤ .

٢) سورة القصص . من الاية ٤٦ .

(وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولىّ مدبراً ولم يعقب)

ونادى الله موسى وأمره أن يلقى العصا التى كانت بيده فألقاها فإذا هى حية تنطلق وتتلوى مسرعة كالجان ، فأدار موسى ظهره وفرّ منها ممعنا في الهرب لا يلتفت .

(يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين)

عد يا موسى إلى حيث كنت ، ولا تخش مهالكة ، فإنى أمّنتك مما تخاف وتحاذر .

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)

أدخل يدك في جيبك ثم أخرجها فسنمنحها بياضاً ناصعاً ، صافياً متلألئا ، في غير علة ولا برص .

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم : إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق .. ا هـ

(واضمم إليك جناحك من الرهب)

وضم ذراعك إلى صدرك يذهب عنك خوفك وفزعك .

(فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه)

فهذان الحدثان والأمران المعجزان اللذان أجريتهما على يديك ، من تحول العصا حية ، ويدك – وهى سمراء – بيضاء تلمع من غير برص، آيتان وحجتان لك على فرعون ، وكبراء ورؤساء وعامة قومه .

(إنهم كانوا قوماً فاسقين)

إن فرعون وجمعه قوم خارجون على أمرنا ، فليكن ما أريتك وما صنعت لك حجة عليهم ، ودليلا على حقيقة نبوتك .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

لما علم موسى أن الله أرسله إلى فرعون وقومه ، شكا إلى ربه – وهو به وبكل الخلق عليم – وناجى مولاه بأنه مبعوث إلى جبارين موتورين ، ففرعون وهامان وجنودهما أكثروا في الأرض الفساد، فكيف إذا ظفروا بموسى وقد فرّ بعد أن قتل منهم واحدا ؟ !

وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

رب وفي لساني عقدة قد لا أستطيع معها الإبانة عن كل ما أريد من قول ، وأخي هرون أحسن مني بيانا ، فإذا قضت حكمتك أن تنعم عليه بالرسالة ، وتجعله لي وزيراً ومعيناً ، يذب ويجادل عني ، فاجعله اللهم لي نصيرا ومؤازرا في حمل أماناتك إني أخاف من تكذيب هؤلاء الطغاة البغاة لما أدعوهم إليه .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

(قال سنشد عضدك بأخيك)

سنقويك بأخيك ، فتزداد به شدة ، كاليد تشتد بشدة العضد ، والبدن يقوى على الصعاب بشدة اليد .

(ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما)

ونجعل لكما حجة فلا يصل إليكم الفرعونيون بسوء .

(بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون)

بشرى من الله الحق لموسى وهرون وأتباعهما بحسن العاقبة ، والنصر على العدو ، وكأن التركيب هكذا : أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا .

وصدق الله العظيم ، فإن حزب الله هم المفلحون ، وإن جند الله هم المنصورون .

ولقد تمت كلمة ربنا الحسنى على المؤمنين بما صبروا ، ودمّر الله وتبّر ما أبرم المجرمون وما مكروا . ولن يخلف الله وعده .

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[1] .

شعيب

من سورة الشعراء

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

(كذب أصحاب الأيكة المرسلين)

أصحاب الأيكة أى الغيضة وهى شجر كثيف ملتف ، وهؤلاء هم أهل مدين على الصحيح ، ودليلنا على ذلك أن جوهر الرسالة إلى أصحاب الأيكة متطابق مع رسالة شعيب إلى قومه ، يقول الله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من

---

1) سورة غافر . الآية ٥١ .

إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين)(١) .

يقول ابن كثير : .. نسبوا إلى عبادة الأيكة .. كانوا يعبدونهـــا فلهذا لما قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال : (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسبا . ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهـــل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال : ثلاث أمم . ا هـ

(إذ قال لهم شعيب ألا تتقون)

هلا خفتم غضب الله،ومقته لان عبدوا غيره ؟ !

إني مبعوث إليكم ، استحفظني ربى على تبليغكم وحيه ، فاعبدوا الله ، واستجيبوا لهدى رسوله ، وما أطمع أن تثيبوني على دعوتي ، وإنما أجرى على أداء الأمانة يتولاه رب العالمين .

أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

كملوا الكيل ، ولا تزيدوا عليه ولا تنقصوا منه في أخذ أو عطاء . واعدلوا في الوزن ولا تطغوا فيـــه .

يقول صاحب تفسير القرآن العظيم : خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون . ا هـ

ولا تجحدوا الناس حقهم ، ولا تغمطوهم قدرهم ، ولا تسلبوهم أمنهم . يقول الحق جل علاه : (ولا تقعدوا بكل صراط (٢) توعدون..) (٣)

---

١) سورة هود . الايتان : ٨٤ ، ٨٥ .

٢) الصراط : الطريق . نهاهم الله عن قطع الطريق

٣) سورة الاعراف . من الاية : ٨٦ .

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾

وارهبوا جلال الله الذى خلقكم وأنشأ الخليقة الذين قبلكم ، فأجابوه مكذبين : إنما أنت محتاج إلى الطعام والشراب ، ولست ملكا نورانيا يستغنى عن الأكل ، وما عرفناك إلا آدميا مثلنا ، وبعيد أن تكون متصلا بالسماء ، إنما تكذب علينا في ادعاء الرسالة .

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

ثم قالوا — تعنتا وتهكما وازدراء — أسقط علينا قطعا من السماء إن كنت صادقا فيما تدعونا إليه .

فقال شعيب لقومه : ربي محيط بأعمالكم ، مجازيكم عليها جزاء من لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عن علمه وجه الحكمة والعدل في تعجيل الانتقام أو تأجيله .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

فأمعنوا في تكذيب نبيهم ، وحلّ موعد إهلاكهم ، فسلط الله عليهم حرّاً شديداً لم يطفئه عنهم شيء ، حتى إذا رأوا غمامة آووا إليها فلما اجتمعوا تحتها يستظلون بها أسقطها الله تعالى عليهم ، فدكّتهم وحرقتهم ، (.. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) (١) .

---

١) سورة الانعام . من الاية : ١٤٦ .

من سورة الصافات

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾
ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

يقول صاحب جامع البيان : هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران . ا هـ

يبين القرآن أن إليـــــاس مرسل من بين سائر رسل الله .

دعا قومه من بنى إسرائيل إلى الحق ، وحضّهم على تقـــوى الله وخشيته .

وأنكر عليهم أن يعبدوا صنما ، ويتخذوه لهم ربّا ، ويتركوا عبـــادة الذى خلق فسوى ، وأتقن كل شىء صنعا .

الله المعبود بحق لا إله سواه ، هو رب السابقين واللاحقين ، ومصلح ومدبر جميع المخلوقين ، فلا ينبغى لعاقل أن يغفل عن جلال هذا الملك القدّوس العظيم .

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ
إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾

فكذّب قوم إلياس نبيّهم ، فغضب الله عليهم وأعدّ لهم العـــذاب ونالهم به ، إلا عباد الله الذين استخلصهم ربنا لتوحيده وطاعته ، فأولئك ينجيهم الله من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

وأبقينا الثناء على رسولنا إلياس ، يصلي ويسلم عليه كل المؤمنين إلى يوم الـــــدين .

سلام على إلياس من الله ومن أحباب الله . و (الياسين) هو إلياس كما يقال : ميكال وميكائيل . والقرآن الكريم يقول : (وشجرة تخرج من طور سيناء ..) (١) وفي آيه أخرى : (وطور سينين) (٢) .

اليسع ، ذو الكفـــــل

من سورة ص

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

(وأذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل)

أثنى الله تعالى على رسوليه اليسع وذى الكفل بين من كرمهم من رسله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –

كما رفع الله تعالى درجة (اليسع) فيمن أعلى ذكرهـــــم :
(وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين)(٣)

وذو الكفل – عليه السلام – قرن اسمه بأسماء رسل مصطفين :
(وإسماعيل وإدريس وذا الكفـــل كل من الصابرين)(٤)

وكلاهما – سلام الله عليهما – من أنبياء بنى إسرائيل ، وكانت بعثتهما بعد إلياس عليه صلاة الله وسلامه .

والمفسرون على أن الأنبياء الذين بعثوا في بنى إسرائيل من بعد موسى ، كانوا يرسلون بالتذكير بما أنزل الله تعالى من وحيه وكلماته في التـــــوراة .

(وكل من الأخيــــار)

وكلٌ ممن اختارهم الله تعـــــالى للنبوة .

---

١) سورة المؤمنون . من الاية : ٢٠ .
٢) سورة التين . الاية : ٢
٣) سورة الانعام . الآية ٨٦ .
٤) سورة الانبياء . الآية ٨٥ .

القســم الرابــع

مــن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

يونـــــس ، داود ، سليمـــــان
أيـــوب ، زكريـــا ، يحيـــى
عيســـى

من سورة الصافات

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

(وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون)

يؤكد القرآن الكريم أن يونس – صلى الله عليه وسلم – رسول من رسل ربنا العزيز الغفار .

بعث إلى طائفة من بني إسرائيل كانوا يسكنون نينوى من أعمال الموصل ، فعصوا رسول ربهم فواعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام ،وقبل أن يبطش الله بهم تركهم وركب سفينة مملوءة، فتوقفت ، فعرف من فيها أن بها عبداً أبق وهرب من سيده ، وإذ ذاك أدرك يونس عليه السلام أنه خرج ولما يؤذن له بعد،فأجروا قرعة وخرجت القرعة على يونس ، فألقوه في البحر ، فابتلعه حوت ، وهو مقرّ بأنه خالف الأولى ، فالأليق للأنبياء أن ترتهن حركاتهم وسكناتهم بما يوجههم إليه ربهم .

مما نقل أبو عبدالله القرطبي بسنده وعدّه أجود إسنادا وأصح ما في الباب ، عن عبدالله بن مسعود .. عن يونس النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن يونس وعد قومه العذاب ، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وخرجوا فجأروا إلى الله عزّ وجلّ واستغفروا ، فكف الله عزّ وجلّ عنهم العذاب ، وغدا يونس-عليه السلام-ينتظر العذاب فلم ير شيئاً – وكان من كذب ولم تكن له بيّنة قتل – فخرج يونس مغاضبا ، فأتى قوما في سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يميناً وشمالاً ، فقالوا: ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبداً آبقا من ربه جلّ وعزّ،وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا : أما أنت

يا نبى الله فإنا لا نلقيك . قال : فاقترعوا فمن قرع فليقع ، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فاقترعوا ثلاثاً فمن قرع فليقع . فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثاً فوقع . وقد وكّل الله به جلّ وعزّ حوتاً فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض .. اهـ

فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

مما أورد الطبرى : .. فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة ، فنادى في الظلمات (..أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين)[1] . ا هـ

وعن ابن مسعود : فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى (.. فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال : (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش .. ا هـ .

واليقطين : القرع .

وقيل : إنما خص اليقطين بالذكر ، لأنه لا ينزل عليه ذباب .

نقل صاحب الجامع لأحكام القرآن عن الثعلبى : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : يا يونس أنت الذى لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن على شجيرة ، فأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن

---

1) سورة الانبياء . من الاية ٨٧ والاية ٨٨ .

أستأصلهم في ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتى ؟ يا يونس أنا أرحم الراحمين . ا هـ

وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

أمرناه بعد خروجه من بطن الحوت بالعود إلى الذين كان قد أرسل إليهم من قبل فصدقوه كلهم وآمنوا به .

وكانوا أكثر من مائة ألف . و (أو) ليست للشك وإنما لعل المراد : وصفهم بالكثرة في مرأى الناظر ، أى إذا رآها الرائى قال : هى مائة ألف أو أكثر .

ذهب ابن جرير وتابعه ابن كثير إلى أن العطف بأو هنا كالعطف بها في قول الله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ..) (١) وقوله تعالى : (.. إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ..) (٢) وقوله تعالى : (فكان قاب قوسين أو أدنى) (٣) . المراد : ليس أنقص من ذلك بل أزيد .

(فآمنوا)

فوحّدوا الله سبحانه .

(فمتعناهم إلى حين)

أنجيناهم من العذاب الذى أوشك أن يحل بهم وأرضيناهم إلى وقت حلول آجالهم . والتوبة لا تقبل ممن دخل في غمرات الموت ، أما هؤلاء فكان قد أظلهم العذاب ولما ينزل بهم : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) (٤) .

---

١) سورة البقرة . من الاية : ٧٤ .
٢) سورة النساء . من الاية : ٧٧ .
٣) سورة النجم . من الاية : ٩ .
٤) سورة يونس . الاية : ٩٨ .

من سورة سبأ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾

أعطينا داود من فيضنا ومن عندنا ما فضلناه به على كثير ممن خلقنا، فكانت الجبال ترجع معه، تردد ما يذكر الله به، وسخّر الله له الطير، وألان له الحديد وملكه وعلّمه، وأيّده فقوى على الإكثار من الصلاة والصيام، ومجالدة الأعداء، والشكر والاستغفار .

يقول الله جل علاه : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)(١) .

وقال عز شأنه : (.. واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب) (٢)
وبيّن القرآن الكريم في موضع آخر جوانب مما فضله الله به : (... وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ..) (٣) .

نقل عن السدى : كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف شاء، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة .

يقول صاحب الجامع لأحكام القرآن : وسبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل لقى ملَكا، وداود يظنه إنسانا، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته في بنى إسرائيل في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذى تمثل له : ما قولك في هذا الملك داود ؟ فقال له الملَك : نعم العبد لولا خلة فيه . قال داود : وما هى ؟ . قال : يرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله . فرجع فدعا الله في

---

١) سورة ص . الايات : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
٢) سورة ص . من الاية : ١٧ .
٣) سورة البقرة . من الاية : ٢٥٠ .

أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه صنعة لبوس كما قال جلّ وعزّ في سورة الأنبياء(١) . فألان له الحديد فصنع الدروع ... في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ، .. وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داو د — عليه السلام — كان يأكل من عمل يده ».

سليمـــــان

من سورة النمـــل

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

(ولقد آتينا داود وسليمان علمـــا)

أعطى الله تعالى داود وسليمان علما كثيرا عظيما ، علم السماء بما تنزل عليهما من وحى الله ورسالاته وكلماته — وما أقدس هذا العلم وأسماه — وعلم قيادة النفوس وتدبير شئون الحكـــــم والسلطان والملك ، كما علّم سبحانه — داود الصناعة الثقيلة والحربية : (وعلمناه صنعة لبوس (٢) لكم لتحصنكم (٣) من بأسكم (٤) ..) (٥) (أن اعمل سابغات وقدر في السرد ..) (٦) .

---

١) ذلك قول الله سبحانه : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من باسكم فهل انتم شاكرون) الاية ٨٠ .

٢) اللبوس عند العرب : السلاح كله . ولعل المراد : الدروع .

٣) لتحصنكم : لتحميكم وتحرزكم .

٤) حربكـم .

٥) سورة الانبياء . من الاية ٨٠ .

٦) سورة سبأ . من الاية ١١ .

(وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)

حمدا الله المنعم وشكراه أن فضلهما على كثير من العباد المؤمنين ، وما شغلهما ما أُعطيا عن الثناء على الوهاب جل ثناؤه ، ولا زادهما الإنعام إلا خضوعا للكبير المتعال .

وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أورث الله تعالى سليمان النبوّة بعد أبيه ، وتحدث بآلاء الله عليه ، وما أظهر المولى الكريم من أفضاله ، وما علّمه فوق علم النبوة والسياسة من فهم لغة الطير والهوام والجن ، كما منحه العزيز الوهاب مُلكاً لا يناله أحد من العـــالمين .

فأما عن لغة الطير فالقرآن يقص ما تقاول فيه سليمان والهدهد : (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصّدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون)[1] .

وأما عن علمه بلغة الهوام ، فإلى ذلك يشير قول الله : (حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولهـــا وقال

١) سورة النمل ـ من الاية ٢٢ الى الاية ٢٨ ـ

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (١) .

وأما عن تسخير الجن له ، فقد بينته آيات من كتاب الله الكريم : (.. ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ..) (٢) (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد) (٣) (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين)(٤) .

وأما عن المُلك ، فإلى جانب من ملَكَ من بني إسرائيل ، دخلت ملكة سبأ في دولته وطاعته ، وآمنت وقومها برسالته ، ويحرك الجنود من الإنس والجن والطير بما لا قبل لأحد به . بل مكنه الله القدير من قوى الطبيعة يسخرها في الصلاح : (ولسليمن الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ..) (٥) (ولسليمن الريح غدوّها شهر ورواحها شهر..)(٦) (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب)(٧) إلى غير ذلك .

(إن هـذا لهو الفضل المبين)

إن هذا الفضل بيِّن ظاهر (.. والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم)(٨)

---

١) سورة النمل . الايتان ١٨ ، ١٩ .
٢) سورة سبأ . من الاية ١٢ ومن الاية ١٣ .
٣) سورة ص . الايتان : ٣٧ ، ٣٨ .
٤) سورة الانبياء . الاية ٨٢ .
٥) سورة الانبياء . الاية ٨١ .
٦) سورة سبأ . من الاية ١٢ .
٧) سورة ص . الاية ٣٦ .
٨) سورة البقرة من الاية ٢٤٧ .

أيــــوب

من سورة الأنبيـــاء

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

(وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)

أيوب نبيّ مرسل . أثنى عليه القرآن في أكثر من موضع ، يقول الحق جل علاه : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحـق ويعقـــوب والأسبـــاط وعيسى وأيـــوب ويونس وهرون وسليمـــن وآتينا داود زبورا) [1] .

والأكثرون على أنه بعث بالشام ، وآتاه الله مع النبوة سعة في المال ، وكثرة في الولد .

وشاء الله أن يبتليه بالضيق بعد الغنى ، وبالمرض بعـــد العافية ، وبمـــوت الأولاد .

ولعل من حكم الله فيما صنعه بنبيه أيوب : أن يمحصه ويرفـع درجاته ، وأن يكون في ذلك عبرة لمن اختبر بشيء ممـــا يكـــره ، فيصبر صبر الأوابين ، المؤملين في رحمة الله رب العـــالمين ، وليعلم الناس أن إقبـــال الدنيا أو إدبارها ليسا علامـــة على رضى المولى سبحانه أو سخطه ، فإن الصفوة الأخيـــار ــ صلوات الله وسلامه

---

1) سورة النساء : الاية ١٦٣ .

عليهم – كان منهم الملوك ، وكان منهم من كُرِب واغتم ، وكلهم مجتبى من الله ومقرّب .

يقول الحسن النيسابورى : واختلف العلماء في السبب الذى لأجله دعا الله أيوبُ ، فعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أيوب عليه السلام بقى في البلاء ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان ، فدخلا عليه ذات يوم فوجدا ريحا ، فقالا : لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة . قال : فما شق على أيوب شىء مما ابتلى به مثل ما سمع منهما فقال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان وأنا أعلم بمكان جائع فصدق ، وهما يسمعان ، ثم خرّ أيوب ساجدا ، وقال : اللهم إنى لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى،فكشف الله ما به . ا هـ .

(فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر)

يشير القرآن الكريم إلى أن الله تعالى جعل لشفائه سبباً ، إذ أرسل إليه أن اضرب الأرض برجلك ، فإذا تفجر الماء كان منه المشرب والمغتسل : (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) .(١) وأبرأ الله تعالى علّته .

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم)

وأعطيناه الولد ، ضعف ما كان فقد ، أحياهم الله تعالى معجزة له . أو رزقه ذرية تشابههم وتزيد عليهم ، رأيان :

نقل الأول عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما ، ونقل الثانى عن مجاهد عن عكرمة .

(رحمة من عندنا وذكرى للعابدين)

الابتلاء واستجابة الدعاء رحمة وذكرى للصادقين في العبودية لله ، فإذا تفكروا وصبروا فازوا بثواب الدنيا والآخرة . كما نال هذا النبى الصابر .

---

(١) سورة ص ، الآية ٤٢ .

من سورة مريم

يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

زكريا رسول من رسل الله ، ينتسب إلى يعقوب الذى هو إسرائيل، كان يتعبد في المسجد الأقصى بإيلياء القـــدس ، وزوجته هى إيشاع بنت عمران ، وأمها حنة بنت فاقوذا ، وكانت قد نذرت أن تجعل حملها خالصاً لخدمة بيت المقدس ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما في بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)[1] .

وذهبت حنة ببنتها مريم إلى المسجد ، فتنازع سدنته ،كل يريـد أن يتبرك بتعهدها ، فاقترعوا ، وخرجت القرعة على زوج أختهـا (زكريا). فكفلها ، وكلما دخل عليها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ، فسألها من أين يأتيها هذا الرزق والثمر ؟ فقالت : هو من عند الله .. عندئذ اشتاقت نفس زكريا إلى الذرية ، وكان قد نيّف على السبعين من عمره ، فدعا ربه أن يهبه نسلا صالحا ، فاستجاب الله له ، وناداه ربنا بوحيه أن بشرى لك فقد وهبتك غلاما وأسميته يحيى ، لم أجعل قبله أحـدا تسمى باسمه .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

---

1) سورة آل عمران . الآيتان : ٣٥ ، ٣٦ .

سأل زكريا ربه سؤال تعجب من بديع صنعه -مع يقينه في قوّته واقتداره - أن سيخرج ولدا من امرأة عاقر لا تلد ، وزوجها تيبس عظمه من الكبر ، وأوهنه المشيب .

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

ردّ المولى عليه أن هكذا أردنا ، والأمر ليس بعسير علينا ، وكما أوجدتك بعد أن كنت عدما ، فأنا قادر على إيجاد غلام منكما ، مع عقم زوجتك ، ووهن عظمك ، واشتعال شيب رأسك .

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

سرّت البشرى زكريا ، فسأل الله أن يعطيه علامة على حمل زوجته إيشاع بيحيى - زيادة طمأنينة وتعجيلا بالمسرة - فأعلمه ربه أن علامة ذلك أن يعجز لسانه عن محادثة الناس ثلاثة أيام بلياليهن ، بينما ينطلق بذكر الله تعالى وتسبيحه ، وبهذا جاءت الآية التى في سورة آل عمران : (قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار)(١) .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

---

١) سورة ال عمران . الاية ٤١ .

فسارع زكريا إلى إنفاذ أمر ربه وعكف على الذكر والتسبيح ، ثم أطلّ وأشرف على قومه – من اعتاد منهم أن يصلى بصلاته – فأشار إليهم أن نزهوا الله واذكروه واعبدوه أول النهار وآخره ؛ والبكرة من طلوع الشمس إلى ما قبل زوالها عن وسط السماء ، والعشىّ من بعد الزوال إلى الغروب . والمحراب : مكان الإمام من المسجد ، وكانوا يتخذون المحراب فيما ارتفع من الأرض ، لكن جمهور أئمتنا على عدم جواز وقوف الإمام في مكان أرفع من مقام المؤتمين به .

وهكذا حقق الله سؤال نبيه زكريا بصدق عبوديته ، وإخلاصه في ضراعته ، أنبأنا بذلك في محكم كتابه : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) (1) .

وليس في شرعنا التقرب إلى الله تعالى بالكف عن مكالمة الناس ، والامتناع من محادثتهم .

روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

وبعد إيجادنا الغلام المبشر به – وهو يحيى عليه السلام – علّمه الله تعالى الكتاب – وهو التوراة – وأمره أن يتعلم كتاب ربه بجد وحرص واجتهاد ، وأعطاه مولاه – سبحانه – الفهم والعلم ، والحكمة والعزم ، والإقبال على الخير ، والمثابرة عليه منذ صباه .

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

---

1) سورة الانبياء ، الايتان : ٨٩ ، ٩٠ .

ومنحناه رحمـــــة من عندنا ، وجعلناه ذا شفقة ومحبة وتعطّف وطهّرناه وباركناه ، وأنشأناه نقيّا تقيّا مطيعا لربه .

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

ومع ما وهبناه من حب ورحمة ، وطهارة وبركة ، ونقاء وتقى جعلناه مطيعاً لوالديه بارّا بهما ، حريصاً على مرضاتهما ، متجـــافيا عما يوقع في عقوقهما ، ولم يكن متكبرا على الخلق ، ولا مغضبا للخالق .

وبشّر الله تعالى يحيى بالأمان في ثلاثة مواطن : أولها منـــذ وضْعِه . والثاني منذ فراقه الدنيا . والثالث حين العرض على ربه . فهـــو منعم عليه بما تضمنته الآيات الثلاث السابقات : من مطلع حياته كما أمّنه من فتنه القبر ، وأمّنه من هول المطلع والفزع الأكبر .

روى الإمام ابن جرير بسنده عن ابن عطية : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم ، قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا .. اهـ .

أقول : أو ليس مما تبتغى به السلامة في هذه المواطن أن نلتزم تلك المكارم ؟ خير لنا أن نتلقى كتاب الله بفهم وعلم، وننشىء أولادنا على مأدبته بحرص وجد ، ونتخلق بخلقه حتى ترى فينا حسن الأسوة ، ونستمسك بمطالبه بمضاء وعزم ؛ ولنتعلم ولنعلم أولادنا أن المحبة والعطف ، والطهر والنقاء ، والطاعة والتقوى ، والبر والتواضع، تدخلنا بفضل الله مداخل الفائزين ، ونجتاز بها الكربات . اللهم آمين .

من سورة مريم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾

يأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر قصة مريم لتكون إحقاقا للحق ، وتعليما للخلق ، وتعظيما للخالق الفعال لما يريد .

ومريم قد اجتباها الله تعالى ورعاها ، وعلّمنا أنه سبحانه تقبلها وأنبتها على أكرم حال منذ ولدتها أمها ، وبذلك شهد القرآن الكريم : (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ..)(١) .

وظل فضل الله العظيم يلازمها ، والملأ الأعلى ينادونها : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)(٢) .

اذكر من أحوالها حال تنحيها وتباعدها ممن كان معها – ربما لتفرغ إلى عبادتها – وانحازت إلى الجانب الشرقي من المحراب أو من المسجد المقدس . والشرق : جهة شروق الشمس وطلوعها .

نقل عن ابن عباس : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه ، وما صرفهم عنهما إلا قيل ربك : (انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا). فصلّوا قِبَل مطلع الشمس . ا هـ .

---

١) سورة ال عمران . الاية ٣٦ ومن الاية ٣٧ .
٢) سورة ال عمران . الايتان : ٤٢ ، ٤٣ .

فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

(فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويا)

استترت منهم ، وتوارت واحتجبت عنهم ، فأرسل الله إليهـــــا جبريل عليه السلام .

يقول الحسن النيسابوري : (فأرسلنا إليها روحنا) يعني بـــه جبرائيل لأن الدين يحيا به وبوحيه ، والإضافة للتشريف ، والتسمية مجاز ، كما تقول لمن تحبه : إنه روحي . ا هـ

فتمثل لها الملك في صورة إنسي تام الخلق، حسن الصورة .

قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

لما رأت مريم هذا المخلوق ظنته بشرا ، وخافته على نفسها فبادرته قائلة : [أستجير منك أيها الرجل بالرحمن أن تنال مني ما حرمه عليك إن كنت ذا تقوى له — تتقي محارمه وتجتنب معاصيه — لأن من كان لله تقيا فإنه يجتنب ذلك](1) .

ونقل صاحب تفسير غرائب القرآن رأيا آخر : وقيل : (إن) نافية أي ما كنت تقيا حين استحللت النظر إليّ .. اه

وحين عاين جبريل فزعها ، طمأنها وسكّن خوفها ، وأخبرها أنه ليس إلا مرسلا من الله إليهـــــا ، ليهب لها غلاماً عفّا ، طاهراً من الذنوب .

---

1) العبارة التي بين القوسين نقلتها من كتاب : جامع البيان . بتصرف .

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

تعجبت مريم مما سمعت – لا تشككا في قدرة الله تعالى – ولكن كأنما أرادت : هل يكون هذا الولد من زوج يتزوجها في المستقبل ؟ أم يخلقه الله تعالى هكذا ؟ ولذلك قالت : (ولم يمسسني بشر) لم تنكح ولم تتزوج .

والمس في القرآن قد يرد بمعنى استمتاع الزوج بزوجته كما في الآية :

(لاجناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن . .)(١) .

وكأنها تسأل : على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور ؟ (ولم أك بغيا) ولست بزانية .

(قال كذلك قال ربك هو عليّ هين)

قال الملك مجيباً على سؤالها : [إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاما ، وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قدير](٢) .

(ولنجعله آية للناس)

ونخلقه لنجعله دلالة على قدرتنا التي لا يعجزها شيء ، فكما خلقنا آدم من غير أب ولا أم ، وخلقنا حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلقنا سائر الذرية من ذكر وأنثى ، فإنا نخلق عيسى من أنثى بلا ذكر .

(ورحمة منّا)

ولنجعله رحمة منا ، وداعيا إلى الدخول في الرحمة ، ونبياً يرحم الله به من دخل في ملته وعمل بشريعته .

---

١) سورة البقرة ، من الآية ٢٣٦ .

٢) مابين القوسين اقتبسته من قول ابي الفداء اسماعيل بن كثير .

(وكان أمراً مقضيا)

إن الله قدّر هذا فهو واقع لا محالة .

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

أي فنفخ الملك فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت ، فاعتزلت بالذى حملته — وهو عيسى — وتنحّت به مكاناً بعيدا عن الناس .

نقل الحسن بن محمد صاحب تفسير غرائب القرآن عن الثعلبى عن وهب قال : إن مريم لما حملت ، فأول من عرف هو يوسف النجار ابن عمها ، وكانت سميت له ، وكانا يخدمان المسجد ، ولا يُعلم من أهل زمانهما أكثر عبادة وصلاحا منهما ؛ فقال لها : إنه وقع في نفسى من أمرك شيء ، ولا أحب أن أكتمه عنك . فقالت : قل قولا جميلا . فقال : أخبرينى يا مريم ! هل نبت زرع بغير بذر ؟ قالت : نعم ! ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، أو تقول : إن الله لا يقدر على الإنبات حتى يستعين بالماء ؟ ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟ فقال يوسف : لا أقول هذا ، ولكنى أقول : إن الله قادر على ما يشاء . وزالت التهمة عن قلبه ، وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لضيق قلبها ، واستيلاء الضعف عليها من الحمل ، فحين دنا نفاسها أوحى الله إليها : أن اخرجى من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك ، فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ، فلما بلغت تلك البلاد وأدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة . ا هـ

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

فأتاها وجع الولادة . وألجأها إلى ساق نخلة ، وإنما عُرّفت (النخلة) إما لكونها مشهورة هناك ، وإما أن تكون (ال) للجنس .

وعندها تمنت مريم أن لو كانت ماتت قبل أن يعلم الناس بولادتها من غير بعل ، أو لأنهم بهتوها وهى عارفة ببراءة ساحتها ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها .

ومما أورده صاحب كتاب [الجامع لأحكام القرآن] : قلت : وقد سمعت أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يعبد من دون الله ! فحزنت لذلك ، و (قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) النسى في كلام العرب الشىء الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه . وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : احفظوا أنساءكم ، الأنساء : جمع نسى وهو الشىء الحقير يغفل فينسى . ا هـ

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

حين اجتمع على مريم الألم الحسى ، والتأثر النفسى ، تداركهما الله البر الرحيم بمزيد من هباته وكراماته ، فكانت المعجزة وأنطق الله تعالى وليدها الذى وضعته لتوها ، وكلّمها طفلها عيسى .

نقل عن ابن عباس والأودى والسدى والضحاك : (فناداها من تحتها) يعنى جبرائيل كان أسفل منها ، وإلى هذا مال القرطبى .

بينما ورد عن مجاهد وقتاده ووهب وأبىّ والحسن وسعيد بن جبير : قوله : (فناداها من تحتها) قال عيسى .

والطبرى إلى هذا الرأى أميل .

يقول أبو جعفر محمد بن جرير : وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : الذى ناداها : ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه في سياق قوله : (فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا) يعنى فحملت عيسى فانتبذت به ثم قيل : (فناداها) نسقا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه . ا هـ

(ألاّ تحزني)

روى عن ابن زيد في قوله : (فناداها من تحتها أن لا تحزني) قالت : وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ لا ذات زوج فأقول : من زوج ، ولا مملوكة فأقول : من سيدى ! أى شيء عذرى عند النـــــاس ؟ (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام . ا هـ

أقول : وجائز أن متاعب الوضع وآلام الولادة بمنأى عن الـــــدار والأهل ، وانقطاع عن قابلة وخادم ، مع افتقاد الطعام إلا ما يتبلغ به المسافر – لعل هذا مجتمعا أحزنها ، ولهذا جاء بعد ذلك قوله

(قد جعل ربك تحتك سريا)

يسّر الله لك أمر الشراب ، فالنهر أسفل منك ، لن تلاقي عسرا في الحصول على ما تريدين من ماء .

والسري في كلام العرب : الجــــدول أو النهر الصغير لأن الماء يسرى فيـــــه .

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن السري : هو عيسى نفسه . من السرو ، وهو السخاء في مروءة ، يقال : فلان من سروات قومه : أى من أشرافهــــم .

لكن الطبرى والنيسابورى وغيرهما على الرأى الأول .

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : وأراد أن النهر تحت الأكمة وهى فوقها ، وأيضاً حمل السرى على النهر موافق قوله : (.. وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)(١) . ا هـ

ويشهد لرجحان هذا المعنى ما عطف عليه من قول الله سبحانه :

وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

---

١) سورة المؤمنون من الاية ٥٠ وتمام الاية : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) .

عُلّمت كيف تحصل على ما هو الأنفع لها من زاد ، ووجهت إلى أن تهز جذع النخلة ؛ والجذع ساق النخلة ، وما دون رأسها الذى عليه الثمرة . وقال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع . والباء في قوله سبحانه (بجذع) قد تكون على معنى : افعلى الهز بجذع النخلة ، تساقط عليك النخلة رطبا طريا قريب المجتنى ، ولعله أنسب طعام بعد الولادة .

أورد صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن : .. استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما ، فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعى منّا فيه ، لأنه أمر مريم بهز النخلة – أو الجذع – لترى آية ، وكانت الآية تكون بألا تهز . ا هـ

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(فكلى واشربى وقرى عينا)

من جملة كرامات الله تعالى لمريم ، وبقية مما أنطق الله به وليدها في مهده ، فبعد أن ناداها عيسى : ألا تحزنى ، ووجهها إلى ما منه تغتذى وترتوى ، إلى النهر والنخلة؛فإن عيسى عليه السلام يقول لها : فكلى من الرطب الجني ، واشربى من ماء السري ، وقرى عينا بابنك النبي .

ولقد بُشرت من قبل حملها به بعظيم مقامه ورفيع قدره : (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين)(1) .

---

1) سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٥،٤٦ .

والعين تقر ، بما ينشرح له الخاطر ، وتطيب النفس وتسرّ .

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن : .. وقدم الأكل مع أن ذكر السرى مقدم ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ... (وقرى عينا) لأن قرة العين تلزم قوة القلب ، والتسلى من الهموم والأحزان . وقيل : إن ألم النفس أشد من ألم البدن فلم قدم رفع ألم البدن على رفع ألم القلب ؟ وأجيب بأن الخوف النفسى كان قليلا لتقدم بشارة جبريل . فكان التذكر كافيا . ا هـ

(فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)

جمهور علماء القرآن على أن كل هذا من كلام عيسى لأمه (١) . يعنى فإن رأيت آدميا يسألك عن أمر ولادتك فأفهميه أنك أوجبت على نفسك لله صمتا ، لن تكلمى يومك أحدا من بنى آدم .

مما أورد النيسابورى ، وبعضا منه حكاه القرطبى : .. وفي أمرها بهذا النذر معنيان : أحدهما : أن كلام عيسى أقوى في إزالة التهمة ، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى . والثانى : أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . ا هـ

أقول : الصوم في الشريعة الخاتمة يكون بالامتناع من الأكل والشرب والاستمتاع بالنساء ، ويطلب فيه الإمساك عن الكلام القبيح ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم » (٢) وقال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » (٣) .

لكن صمت مريم عن الكلام ربما كان من شرائع من سبقونا وكانوا إذا صاموا كفّوا عن الطعام وعن الكلام .

---

١) تقدمنا أن ائمة التفسير بالمأثور كالحسن وابن جبير ووهب وابن زيد وأبي ومجاهد على أن الكلام من أول قوله تعالى : (فناداها ..) الى قوله سبحانه : (انسيا) من كلام عيسى . واختاره الطبري .

٢) رواه البخاري ومسلم .

٣) رواه البخاري .

أما ما جاءنا به خاتم المرسلين عن رب العالمين فليس فيه تعبّد بالكف عن مكالمة الآدميين . روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾

لما كلم عيسى أمه ، وتحقق فيه ما وعدها ربها ، ازداد يقينها ، واحتملته ثم عادت به إلى أهلها ، مطمئنة بما رأت من الآيات إلى أن الله سبحانه سيظهر أمرها ، ويبدى عفتها وطهرها . فلما أقبلت وبصحبتها صبيها خاطبوها — محزونين — : إن الذى وقع لك شىء بديع جديد لم تُسبقى إليه ، أو تطاول عليها بعض السفهاء فرموها بالإبعاد في الفاحشة . والفرى : القطع .

يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

نادوها : يا أخت العف الطاهر هارون ، ويا بنت عمران النقى التقى ، ويا وليدة الأم المحصنة العابدة ! .

وهارون كان أخاها من أبيها ، وكان مثالا في الصلاح ، أو كان عابدا منقطعا إلى الله عزوجل في زمانها واسمه هارون ، فنسبوها إلى أخوّته من حيث إنها موقوفة على خدمة بيوت الله . وعلى أىّ فليس هو هارون شقيق ووزير موسى — صلوات الله عليهما —

في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران [1] سألوني فقالوا : إنكم تقرءون: (يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك ، فقال : « إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم » .

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)

وفّت مريم بنذرها فلم تكلمهم ، وإنما كان جوابها أن أشارت إلى طفلها ليوجهوا الحديث إليه ، فكأنهم عدّوا ذلك استخفافا بهـــم ثم قالوا : من يكن في حجر أمه وفراش رضاعه فكيف نحادثه ؟ فـ (من) أداة شرط .

قال ابن الأنباري : لا يجوز أن يقال (كان) زائدة وقد نصبت (صبيا) ، ولا أن يقال : (كان) بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لا ستغنى فيه عن الخبر ، تقول : كان الحرّ وتكتفي به . والصحيح أن (من) في معنى الجزاء و (كان) بمعنى يكن ، والتقدير : من يكن في المهد صبيا فكيف نكلم ؟ ! ... والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء ، كقوله تعالى : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ..) [2] أى إن يشأ يجعل . ا هـ

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)

أقرّ أول ما حدّثهـــم : بعبوديته لله سبحانه ، وأنبأهم بما أعدّ مولاه له من إيتاء الكتاب والنبوة . فـ (آتاني) و (جعلني) ماضيان فى معنى المستقبل ، ونظيره في القـــــرآن : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه ..) [3] .

---

١) كانوا يدينون بالنصرانية .
٢) سورة الفرقان . من الاية ١٠
٣) سورة النحل . من الاية ١ .

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

(وجعلني مباركا أينما كنت)

وحكم لي ربي في الأزل – وأنبأني بفضله – بما وهبني من البركات والمنافع بتعليم الدين والدعوة إليه .

نقل عن القشيري : وجعلني آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر وأرشد الضال ، وأنصر المظلوم ، وأغيث الملهوف . ا هـ

وكيف لا وبركته ونفعه قد شهد بعظمهما القرآن الكريم : (..ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم ..) (١) .

وفي صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول : أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم).ويأبى الله إلا أن يجعله مجاهدا منصورا قبل أن يرفع وبعد أن ينزل ، فالقرآن يدعو المؤمنين إلى نصرة الله،مثلما فعل المسيح وخاصاؤه : (يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) (٢) .

والسنة تثبت أنه مجاهد منصور بعد نزوله ، مما روى مسلم في صحيحه بصدد قتل الدجال : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن

---

١) سورة ال عمران من الاية ٤٩ .

٢) سورة الصف . الاية ١٤ .

مريم فينزل عند المنـــــارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (١) واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان (٢) كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ (٣) فيقتله ».

يقول صاحب تفسير غرائب القرآن : وههنا بحث للنصارى ، قالوا : إن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها ، ولا شك أن مثل هذه الواقعة يكون بمحضر جمع عظيم ، وتتوفر الدواعى على نقلها فيبلغ حد التواتر ، فلو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى ، لأنهم أفرطوا في محبته حتى ادعوا إلهيته ، لكنهم أطبقوا على إنكاره ، فعلمنا أنها لم توجد أصلا . وأجاب المسلمون من حيث العقل بأنه لولا كلامه الذى دلهم على براءتها من الذي قذفوها به لأقاموا عليها الحد ولم يتركوها ، ولعل حاضرى كلامه قليلون فلذلك لم يبلغ التواتر ، وإطباق النصـــارى على إنكاره ممنوع ... وبتقدير أن يذكـــروا ذلك فإن غيرهم كانـــوا يكذبونهم في ذلك ، وينسبونهم إلى البهت ، فهم أيضاً قد سكتوا لهـــذه العلة ، فلهذه الأسباب بقى الأمر مكتوما إلى أن نطق القـــــرآن بذلك . ا هـ

وأوصانى بأداء الصلاة والزكاة دوام حياتى ، والنهوض بحقهما من حين يمكننى أداؤهما .

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

وجعلنى بارًّا بوالدتى ، ولم يجعلنى متكبرا ولا متعاليـــا على الغير ، ولا جاحدا لحق الخلق ، ولم يشقنى فأخيب من الخير .

واقتران البر بالتواضع ونوال الخير ، مدعاة للإحسان إلى الوالدين . نقل عن بعض أهـــــل العلم من السلف قال : لا تجـــــد عاقّا إلا وجدته جبّارا شقيّا .

١) بين مهرودتين : متلبس بثوبين مصبوغين بالورس ثم الزعفران .

٢) الجمان : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .

٣) قرية في فلسطين قريبة من بيت المقدس .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ . . . (٣٤) ﴾

والأمان من الله عليّ يوم جئت إلى هذه الدار ، وبحسبه أن الله أعاذه منذ لحظة ولادته ، فما مسه شيطان – كما جاء في الحديث الصحيح الذى أوردناه قبل قليل – وبشرى له بالأمان ساعة خروج الروح من الجسد – وما أصعب معاناتها وسكرتها ، وما أخطر هواجسها وفتنتها – ومن كربتها علمنا القرآن سبيل الأمان : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون)(١) . وأمّن الله عيسى عليه صلاة الله وسلامه من كربها وفتنها ، كما كتب الله له الأمن يوم الفزع الأكبر .

(ذلك عيسى ابن مريم)

هذا الذى قص عليكم القرآن نبأه ، هو عيسى ابن مريم ، وهو المسيح كما سماه الله سبحانه : (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ..)(٢) .

يقول الحسن النيسابورى : والمسيح لقب من الألقاب المشرفة كالصدّيق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه : المبارك .. وكذلك عيسى معرب إيشوع ... عن ابن عباس : سمى بذلك لأنه ما كان يمسح ذا عاهة إلا يبرأ ... ا هـ

(قول الحق)

حديثنا عن عيسى حديث صادق ، فـ (قول) منصوب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة . وهو مضاف و (الحق) مضاف إليه ، من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل قوله تعالى : (.. وعد الصدق الذى كانوا يوعدون)(٣) أى الوعد الصدق .

---

(١) سورة المؤمنون : الايتان ٩٧، ٩٨ .

(٢) سورة ال عمران . من الاية ٤٥ .

(٣) سورة الاحقاف . من الاية ١٦ . وتمامها (أولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون)

ما تضمنه القسمان الثالث والرابع من أحاديث

ما تضمنه القسم الثالث

ما تضمنه القسم الرابع

القســم الخــامس

خاتم رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته

محمــــد

عليه الصلاة والسلام

محمـــــــد

مرسل إلى الكـافـة

من سورة سبأ

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

خطاب من الله تعالى لنبيه ، وإعلام لسائر العقلاء إلى يـــوم الدين ، أن محمدا رسول الله إلى جميع المكلفين ، ولكن أكثر النـــاس لا يعلمـون ، أو يعرفون أنه صادق فيما بلغ ولكنهم يجحدون ، فلما لم يعملوا بمقتضى معرفتهم صاروا كأنهم لا يعلمون .

وعلماء القرآن واللسان على أن في العبارة تقديما وتأخيرا والتقدير : وما أرسلناك إلى الناس إلا كافة . أى عامة وجميعا .

يقول الله تعالى آمرا نبيه محمدا : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ..) (١) .

وفي الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى .. » إلى أن قال : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

بل أكثر المفسرين من السلف والخلف على أن العهد الذى أخذه الله على النبيين : أن يتبعوا النبى الخاتم وينصروه إن أدركوه وهم أحياء ، وأن يوصوا بذلك أقوامهم : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .(٢)

وإرساله — صلى الله عليه وسلم — لم يكن إلى سائر البشر وحسب ، وإنما هو مبعوث إلى كافة المكلفين .

---

١) سورة الأعراف . من الآية ١٥٨ .

٢) سورة آل عمران . الآية ٨١ .

يقول الله جل علاه : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (١) .

فالله سبحانه أرسل نبيه نذيراً إلى عوالم أخرى غير عالم الإنس .

بيّن القرآن الكريم أن الله منزله وموحيه وجه الجن ليسمعوا من البشير النذير : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين)(٢) . وتبين الآيات الكريمة أنهم آمنوا بالنقل والعقل : (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ..) (٣) . (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) (٤) . وهدتهم عقولهم المستنيرة إلى استحالة أن يفترى الرسل على ربهم : (وأنا ظننا (٥) أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) (٦) .

كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت إلى كل أحمر وأسود » أى إلى كل مكلف إنسى أو جنى .

محمد

مرسل بالتزكية والتعليم

من سورة البقرة

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

---

١) سورة الفرقان . الاية ١ .
٢) سورة الاحقاف . الاية ٢٩ .
٣) سورة الجن . الاية ١ ومن الاية ٢ .
٤) سورة الجن . الاية ١٣ .
٥) ظنا بمعنى علمنا كما جاء في آية اخرى : (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم)
٦) سورة الجن . الاية ٥ .

يمنّ الله تعالى على أُمة الإسلام ، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، بإتمام النعمة ، وإحلال الهداية ، والتشريف بانتسابنا إلى النبي المبعوث بالتطهير والتكريم ، والتربية والتعليم .

يتلو علينا آيات الله الحكيم وكلماته ، فتحيي القلوب من مواتها ، وتوقظ المشاعر الإنسانية من نومها وسباتها ، ويربي بالتعريف والقدوة ويطهر السلوك بالعظة والأسوة ، ويعلم الكتاب ، وهو تنزيل الحكيم العزيز العليم ، ويعلمنا الحكمة القولية والعملية ، ويحرص على إعمال العقل والتعرف — ما استطعنا — على أسرار الكون ، فإنه من أجلنا أودعه ربنا اللطيف الخبير سننه وقواه .

إنها من آيات مولانا البر الرحيم ، ومن براهين قوته واقتداره ، أن يُبعث أمي في أُمة لا تكتب ولا تحسب — إلا نفرا قليلا — فيعلم ويعلم ، وتتحول الأمة إلى إمامة البشرية ، والقوامة على الخليقة : (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)(١) .

وبهذا عظمت أفضال المنعم الوهاب : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ..)(٢) .

وأي علم أرفع وأنفع من تدبر آيات الله القرآنية والكونية ، والاقتداء بهدى النبي وتوجيهاته الكلامية والفعلية ؟ !

محمد

ومقامه المحمود

من سورة آل عمران

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

١) سورة الجمعة . الاية ٢ .

٢) سورة ال عمران . من الاية ١٦٤ .

أمر الله تعالى نبيه أن يدلنا على ما به ينال حب ربنا وثوابه، ومغفرته ورحمته، وأن ذلك ينال باتباع نبى الله ومصطفاه .

لقد جعل الله طاعة الرسول طاعة له سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ..) (١) وبها تنال الجنة والرضوان : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات ..) (٢) ويرقى إلى الفردوس الأعلى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ..) (٣) وأهل طاعته هم أهل الهداية والسعادة في الدارين : (.. وإن تطيعوه تهتدوا ..) (٤) والتصديق به مع تقوى الله نور في العاجلة والآجلة : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفاين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ..) (٥) (.. يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ..) (٦) .

وأهل الفلاح هم المصدقون به، المعظمون لمقامه، المقتدون منهاجه، المقتفون أثره (.. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) (٧) .

وأدّبنا كتاب ربنا بتكريم مجلسه : (إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) (٨) (.. وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ..) (٩) .

وأنذر القرآن الكريم كل منحرف عن هدى النبى وطريقه : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ..) (١٠) (.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره أنّ تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (١١) .

---

١) سورة النساء . من الاية ٨٠ .
٢) سورة النساء . من الاية ١٣ .
٣) سورة النساء من الاية ٦٩ .
٤) سورة النور . من الاية ٥٤ .
٥) سورة الحديد . من الاية ٢٨ .
٦) سورة التحريم . من الاية ٨ .
٧) سورة الاعراف . من الاية ١٥٧ .
٨) سورة الحجرات . الاية ٣ .
٩) سورة النور . من الاية ٦٢ .
١٠) سورة النساء . من الاية ١١٥ .
١١) سورة النور . من الاية ٦٣ .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يَد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهـــد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) (١) .

وقد وعده الله جل علاه المقام المحمود في الآخرة : (.. عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) (٢) وعسى في كلام الله للتحقيق .

وجعل هذه الدرجة العالية الرفيعة شفاعة في العاثرين ، وشهادة على من يشهدهم الله تعالى على البريّة : (.. لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ..) (٣) .

محمـــــد

ورحمتـــــه

من سورة التـــوبة

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

لقد جاءكم أيها النـــاس رسول بشر مثلكم لتفهموا عنه ــ كما أرسلنا إلى الأقوام السابقين رسلا من أنفسهم ــ ولتأتموا وتقتدوا به ، ويعزّ على رسولنا إعناتكم ومشقتكم ، ويكره لكم الشقوة والعذاب ؛ ولقد بيّن الكتاب الكـــريم مبلغ حزن النبى على ضلال الضالين ، حتى كاد يموت غمّا ، وتنزّل عليه قول ربنا العظيم : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) (٤) (فلعلك باخــــع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (٥) ، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم شديـــد الإشفاق على كل الخلـــق : (وما أرسلناك إلا رحمـــة للعالمين) (٦) حباه الله تعالى أدبا عاليـــا : (وإنك لعلى خلق عظيم) (٧) . حريص على

١) سورة الفتح ، الاية ١٠ .
٢) سورة الاسراء ، من الاية ٧٩ .
٣) سورة البقرة ، من الاية ١٤١ .
٤) سورة الشعراء ، الاية ٣ .
٥) سورة الكهف ، الاية ٦ .
٦) سورة الانبياء ، الاية ١٠٧ .
٧) سورة القلم ، الاية ٤ .

هدايتكم وإيمانكم ، شديد الرأفة والشفقة بكم .

ولقد جمع الله تعالى له الفضائل والمكارم ، ووصفه في كتب أنزلها من قبل مجيء النبي ومبعثه بنعوت الرفعة والكمال، وإلى هـذا تشير الآية الكريمة : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التـوراة ومثلهـم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ..) (١) .

محمـــد

وعبـادته

من سورة المزمل

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ . . .

يأمر الله تعالى نبيه ، أن ينهض من مهجعه ليخلو إلى ربه ، ويفرغ إلى مناجاته ، ويطيل الوقوف بين يديه ، ويدعوه ويضرع إليه . هذا إلى ما كتب عليه وعلى أمته من العبادات ، وما طولب به — صلوات الله عليه — من حمل أعباء الرسالة ، وأمانة تبليغها .

وقد رغّب الله سبحانه أهل الإيمـان في قيام الليل ، ووعدهم أجزل المثوبة على ذلك : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعـون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهـم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (٢) .

إلا أنه كان واجبا على النبي الكريم تهجد نصف الليل بزيادة قليلة أو بنقصان قليل لا حرج عليه في ذلك .

ولقد وفّى صلى الله عليه وسلم بما نودي إليـه ؛ في الصحيحين عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قـام

١) سورة الفتح . من الاية ٢٩ .

٢) سورة السجدة . الايتان : ١٦ ، ١٧ .

حتى تفطر رجلاه فقالت له عائشة رضي الله عنهـــا: يا رســول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا » .

وفرض الله عليه وعلى أمته الجهاد ، فجاهد في الله حق جهــاده (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون)(١) .

وفرض على أهل التوحيد عبادات كان النبي المصطفى أحرص ما يكون على أدائها وإتقانها حتى جعل المولى الحكيم القدوة الصالحة في متابعة المختار — صلوات الله عليه — (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)(٢) ولقد كان يتعبد إلى الله بحسن المعاملة وفعل الخير واصطناع المعروف .

محمـــــد

ومعجزاتــه

من سورة العنكبوت

ج

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

أوليس يكفي في إثبات صدق نبوتك ، وحقية رسالتك ، ما جاءك من كلماتي ، وما أوحيت إليك من قرآني ؟ ! بلى إن كتاب الله هــــو المعجزة (٣) الخالدة الكبرى الدالة على أن محمـــدا رسول الله . فقد تحداهم — وهم أهل الفصاحة والبيان — أن يأتوا بقرآن يضاهيـــه فبهتوا ، أو بعشر سور مثله فعجزوا ، أو بسورة واحدة فغلبوا ، (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليـــم) (٤) وإنما يتذكر عبر القرآن ويدخل في رحمته أهل الإيمـــان .

---

١) سورة التوبة . الاية ٨٨ .
٢) سورة الاحزاب . الاية ٢١ .
٣) في عزمنا تفصيل اعجاز القرآن في كتاب قادم — ان شاء الله — وكذا تناول بعض المعجزات الاخرى .
٤) سورة الانعام . الاية ١١٥ .

ومع ذلك فقد أجرى الله تعالى على يد حبيبه ورسوله خوارق أخرى للعادات - خالدة بخلود الكتاب العزيز - إحقاقاً للحق وإفحاماً للمعاندين ، وكثير منها بيّنه القرآن الكريم : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ..) (١) (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ...) (٢) (عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٣) (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ..) (٤) (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) (٥) (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) (٦) .

محمـــد

خاتم النبيين

من سورة الأحزاب

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

(ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم)

لم يكن النبى أباً لواحد من رجال زمانه - إذ أبناؤه ماتوا صغارا - والحسن والحسين كانا طفلين . وأبوّته للأمة أبوة تكريم وتوقير منهم لمقامه - صلى الله عليه وسلم - وشفقة ونصحا ورعاية منه

١) سورة الاسراء ، من الاية ١ .
٢) سورة التوبة ، من الاية ٤٠
٣) سورة النجم ، الايات : من ١٤ الى ١٨ .
٤) سورة الانفال ، من الاية ٤٠
٥)سورة القمر ، الايتان : ١،٢ .
٦) سورة الاحزاب ، الاية : ٩ .

لأمته ، يقول الله سبحانه : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..) (١) وفي الصحيح :« أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين فترك دنيا فعليّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته »

(ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

ختم الله تعالى به النبوة فهو آخرهم ولن يبعث الله برسالة بعده حتى تقوم الساعة .

وما دامت النبوة قد ختمت به ، فالرسالة من باب أولى ، إذ الرسول لا يكون إلا نبيّا .

في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى به الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى » .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» ونحوه عن أبى هريرة غير أنه قال : « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

أتم الله علينا الدين ، ورضى لنا الإسلام وتكفل بصيانة الكتاب العزيز : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٢) وتضمن بخلود الرسالة الشاملة الكاملة : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) (٣) .

---

١) سورة الاحزاب : من الاية ٦ .

٢) سورة الحجر . الاية ٩ .

٣) سورة الفتح . الاية ٢٨ .

ما تضمنه القسم الخامس من أحاديث

. . . .

مجمل محتويات الكتاب

الموضــوع

الموضــوع